

في وحل العار

- في وحل العار
  - كفاح محمد
  - متجر كافي بوك
- الطبعة الأولى 2019

اليمن / صنعاء  
جوال : 770634909 – 00967  
فيس بوك : cafebookshop  
إنستجرام : cafebook\_shop

• جميع الحقوق محفوظة للناشر : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

\* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

رقم الإيداع بدار الكتاب صنعاء 1207 / 2019

# في وحل العار

"عالم مظلم تموت فيه الرحمة"

رواية

كفاح محمد

2019





## الإهداء

إلى روح تثبث في روعي الحياة - عائشة -  
وإليك أنت يا سعادة لا تحدّها حدود أو مواقع - إبراهيم -



## مدخل:

إلى طيرٍ جريحٍ تلفه قيود الحزن.  
إلى شهيدٍ بسمتهُ كُبياضُ الكفن.  
إلى ذاكرتي التي عشعشت فيها خيوط المحن.  
وإلى من له حلمٌ سرقة الزمن  
ومع ذلك يبتسم...





(1)

## أنتِ لغز

ولهذا ما كان يجب عليك أن تحبها..!

حينما رأيته شعرت وكأنما نبض قلبي لأول مرة، وكأنما تذوقت  
حلاوة الحياة بعد مرارة استمرت لسنواتٍ ذائبةٍ في حلقي. أيام عجاف  
كتبها القدر عليّ. حينما رأيته أحسستُ بنسيم البحر، أحببتُ ضوء  
القمر، تنفستُ رائحة الورد، أدركت معنى ألوان الحياة... لأول مرة  
كتبتُ الشعر، أحببتُ الخيال، عشقتُ السهر مع صورك التي  
تنغرس في ذاكرتي التي لم تسكنها امرأة قبلك... معك أدركت  
معنى أن تكون عاشقا، ومعنى أن تحب إنسانا... محبوبتي، فقط  
أحبيني وأعدك بجنتٍ ستسعدني بها... فقط أحبيني.. لكن تظلمين  
حلما، وأي حلم!

حلم يصعب عليّ لمس شعره، تحسس خديه.. كنت كقمة جبل  
شامخ يصعب الوصول إلى قلبك... كنت بعيدة عني إلى أبعد مدى  
يمكن لجسدك أن يصل له .

- ربا... إذا أحببت أحداً ما، لكنه لا يعيرك أي اهتمام، ماذا  
ستفعلين؟

- لا شيء! فقط أتركه يفعل ما يشاء!
- ماذا يعني أن تتركه؟! إذا كان هو الشخص الذي يسكن قلبك! كيف ستسببه؟
- دكتور خالد.. أنت تعلم أنني لا أعرف الحب، ولا أشعر به، وليس لدي تجربة حتى أحكم عليه، ولذا أرى ما أراه!
- كأغرب ما يكون أنت، لغزٌ محيرٌ مريب. أنت بحر غامض لا أحد يجرؤ على الاقتراب منك، وأيما شخص اقترب منك رفضته وأغلقت باب الحب في وجهه! يا لسحرك الفاتن!.. حينما أرى أصدقائي الذين يحاولون الاقتراب من نارك وكيف تحرقينهم؟ أتعجب! أيكون مصيري نفس مصيرهم؟! هل ستقفلين كل أبواب قلبك في وجهي؟ أم أن هناك بصيص حب يسكن قلبك وتكتمينه؛ خوفاً من أن أغلق باب قلبي في وجهك. أم ماذا تراه يكون؟
- حينما أحاول أن أسألك عن الحب تتجنبين ذلك، وكأن لك عالمٌ سري لا يعرفه أحد سواك، أو كأن أقفال قلبك قد فتحت لشخص ما، ثم أغلقت إلى الأبد، وإن كان هناك من قد حلّ بقلبك من تراه يكون هذا الكائن؟ وكيف استطاع فتح تلك الأبواب؟ أو لربما تلك الأبواب قد كسرت كسراً ولم تُفتح؟
- محبوبتي الصغيرة العنيدة الغامضة.. أراك كل يوم تكبرين في عيني، وفي قلبي، وفي روعي. أتأملك فأجدك شمساً تسطع على آلامي المظلمة، تزيل عتمة كل ضباب القلب الأسود. أراك موجة بحر عاتية تدق شغاف قلبي.. نسمة باردة تهزّ شراع مشاعري. نجم ساطع

في سماء سوداء، أستهدي بها من الهلاك في صحراء قاحلة الحب  
كحال مجتمعاتنا، أستهدي بك في محيط تيه الإخلاص والوفاء.  
أراك كملاكٍ حط بجناحيه على خاطري وهداً من فزعي وحيرتي..  
فيا من أراك كما أراك متى تكونين لي كما أتمناك ويحلم فيك  
خيالي ويراك؟

غامضة أنت لدرجة يصعب على أحد أن يتسلل إلى أسرار قلبك.  
عنيدة لدرجة أنك سحرت كل من حولك. قاسية لا ترحمين عطشى  
حبك. ما أنت إلا ابتلاء، وأنا قد ابتليت بحبك.

- دكتور خالد!

- هممه

أجاب عليها والكآبة تغمر وجهه المليء بالحزن .

- عجباً ما الذي يشغل تفكيرك إلى هذا الحد؟ ألم ترَ عالماً  
تمكث فيه غير عالم الصمت والشرود؟  
- رُباً... هل أحببت من قبل؟

تأففت وأزاحت ناظريها عنه كنوع من التجاهل.

- حينما أتحدث معك انظري إليّ، أشعريني أنني أتحدث مع  
كائن حي يستطيع أن يتحرك ويتأقلم مع المحيط الخارجي له!  
- هأنذا أنظر، ماذا تريد؟  
- أجيبني على سؤالي، هل أحببت من قبل؟  
- فاقد الشيء لا يعطيه.

- حسناً، وماذا تقولين في الحب؟
- يا أخي أعلم أن الحب مصيبة (ذاق شرابها الكثير، ثم أصبحوا مجانين! لا شيء غير الآلام والحسرة والندم) أجارنا الله من شر هكذا مصيبة.

آه منك آنستي، عذبت قلبي طويلاً وأهلكتني في عالم المولعين والمغرمين، وكنت أنت أول حلم أعجز عن تحقيق الوصول إليه. كم أتوق للوصول إلى شيء أريك فيه كم أحبك، وكيف يستحوذ حبك على قلبي، ولكنك في كل شيء كنت سريعة الفهم إلا في هذا. لم أستوعب ذلك؟ هل تتجاهلين مشاعري لأن قلبك في قفص أسير، أم لأنك لم تجربي الحب، ولم تفهمي معنى شعور أن تحبي شخصاً ما. أيتها العنيدة! سأحصل على قلبك يوماً ما، وسأسكن فيه كما سكنت في قلبي. ومهما بُعد ذلك أو قرب، لنا يوم، كما أن لكل شيء يوم.

فالد عبدالعزیز

(2)

## الهديةُ الغريبةُ

عدت ليلاً عند العاشرة مساءً، كعادتي، متعب الجسد، منهك الروح، مشتت الفكر. ركنت سيارتي في المرأب ثم قصدت البيت. كل مفاصل جسدي كانت تتن، ألمٌ وتعبٌ بعد ذلك اليوم الشاق الذي أردى روحي في العذاب قتيلة ... رأيت بالقرب من الباب 'علبة' يتضح من شكلها أنها هدية. تساءلتُ من يكون مرسلها؟ وماذا عساه يكون بداخلها؟ فمنزلي هذا جديد ولا يعرفه سوى أشخاص يعتدون بالأصابع وهم نادراً ما يرسلون إليّ بمثل هذا الشيء وخاصة في هذا وقت.

لوهلةً ظننتها هي، لكنني عندما فتحتها وتبين لي محتواها بهتَ ظني وتلاشى. فما كانت لتهديني رواية! فهي كما أراها تحبّ أن تقرأ لا أن تكتب. ومن شكل الرواية يتضح أنها مؤلفة من قبل شخصٍ ليس بكاتبٍ مشهور، فليست كلماتها مدججة بالألفاظ الجزلة، ولا حروفها منمقة مليئة بالمحسنات اللغوية واللفظية، إنها فقط تفوح برائحة الأنين والألم.

أخذت أتمعن تلك الرواية التي لم تحمل أولى صفحاتها سوى بضعة حروف. لا يوجد لها تاريخ ولا اسم لمؤلفها. فقط اسم لعالم من المشاكل والمآسي التي أسدلت ظلامها على مجموعة من الناس.

أوليس هذا بالشيء المذهل؟! شيء ليس له تاريخ محدد، فقط عالم لا يحده زمان ولا مكان، بُني على شيء يسمى الأزل لا بداية تحيطه ولا نهاية توفقه.

دخلت المنزل ووضعت معطفي على المنضدة وارتيمت على الأريكة لأقرأ، ورغم كل الألم الذي كان يمتص قوتي وطاقتي، إلا أن الفضول الذي يربض جوفي منذ الصغر شدني أكثر لأقرأ ما فيها.

قرأت عدة صفحات منها وكلما قرأت صفحة انتابني شعور بالشغف نحو المزيد؛ فشهوة القراءة لدي ليس لها حدود ولا قيود، بل لهيبها يثبيني عن فعل أي شيء سواها. حينها لم أشعر بطرف عيني كيف أسدلت ستارته بهدوء، ثم استغرقت في نوم عميق، وأنا أحلم بمصير تلك الفتاة المسكينة التي حكم عليها القدر وسجنها في قفص العادات البئيسة المريبة.

(3)

## الكاتبُ المجهول!

- السلام عليكم ... هل يمكنني الدخول؟
- وعليكم السلام ورحمة الله، تفضل دكتور خالد.
- تعلمين أنني لا أخفي عنك شيئاً.
- نعم، فنحن مثل الأخوة.
- حسناً... بالأمس عندما عدتُ إلى البيت وجدتُ 'علبة' موضوعة قرب الباب.
- وماذا كان في داخلها؟
- في داخلها رواية! ولا أعلم من الذي كتبها! ولماذا أرسلت إليّ بالذات؟ كل الذي أعرفه أنها رواية تتحدث عن العادات والتقاليد التي تحدث في بلدكم.
- اليمن؟!!
- نعم. اليمن..
- ولا تعلم من هو الكاتب؟
- هذا الشيء الذي يحيرني. من الذي جاء بها إليّ؟
- ألسنَ كاتباً مشهوراً بمقالاتك ونشاطاتك الأدبية ولديك معجبين؟
- نعم... الحمد لله.

- أعتقد أن كاتب الرواية يطلب منك نشرها، لتوضح للعالم الشيء الذي يحدث بسبب العادات والتقاليد التي بسببها يقتل ويظلم الكثير من الناس. وجلّ هذا بسبب الجهل، والغباء، والغفلة.. إلخ
- أنت ترين هذا؟
- هذه وجهة نظري وأنت اقرأ الرواية، وفكر.

عزيزتي ربا... ظننتك لوهلةً ذاك الكاتب المجهول... تأملين لما يحدث في بلدك وفي الوطن العربي! ظننتُ أنك تشاطريني أفكارى، شخصٌ يكتب ليحيي قضية، يرسم ليفضح واقع، يغني لكي يرسل للعالم رسائل خفية مصدرها الحقيقة ومحورها الحق، لكن - وللأسف - تبين لي أنك لست من كتبها. لكم تمنيت أن تكوني أنت! لعلّي حينها كنت قد استطعت حل لغزك المحير، والكشف عن ماضيك الخفي، وتفسير كل ذاك الغموض الذي يلفك.

لكن أنت وما أدراك ما أنت! كنتِ كما لم يكن أحد مثلك، ولا أدري كيف تكونين؟ فمن تكونين؟ وماذا عساك تكونين؟!

أحياناً أتأمل الكون الفسيح المتسع، أغمض عينيّ عليّ لا أرى: (طفلٌ يبكي جوعاً، ورجلٌ ينتف شاربه هماً وغماً، وامرأةٌ تكابد نهارها في أعمال البيت وفي أطفالها، وفي تلك المشاكل المحبوبة والنازلة على رأسها، وتكابد ليلاً في سماع ثرثرة زوجها أو انزعاجه لأتفه الأسباب، وأمّهاتٌ يبكين أبناءهنّ، إما عاقٌ قد هجر ونسي،



وإما سجينٌ في إحدى زوايا الحياة، وإما غائبٌ حاضراً، قد رحل إلى  
عالم آخر)

فأنا حقاً لم أعد أدري ما بال الإنسانية اليوم أصبحت بهذا الوجه  
القبيح المتسخ المليء بالقذارة. فقد أصبح سادة السلام وصانعوه  
والمنادون له هم - وللأسف - صانعو الأسلحة التي تهدم السلام.  
يتفاخرون بأنهم مؤسسو حقوق الإنسان وهم في الحقيقة يتاجرون به  
هنا وهناك، هم من يربون الإرهابيين والقتلة والمجرمين ثم يتظاهرون  
بأنهم يريدون القضاء عليهم!! يعلنون للعالم أسمى مناص الحب  
والسلم، ويخفون أشد الطمع والجشع والجرم. عجباً لهذا العالم وأيما  
عجب! لا أدري هل تلك المليارات من البشر غبية لدرجة أنها لا ترى  
مثل هذه الحقائق وتصيح في وجه أولئك القتلة! أم أن لهم أيضاً  
مصالح مثل مصالح أولئك التجار! أم أيها البشر ماذا بكم؟ ماذا؟!

(4)

## تلك أنا!

عندما قرأت أول صفحة من هذه الرواية، أحسستُ بوجه الشبه بيني وبينها، شبه ليس في الوجه ولا في الخلق وإنما شبه في الظلم، نعم نحن متشابهون كثيراً، فأشبهاء الخلق أربعين ولكن أشباه الظلم ملايين، أو لا يمكن حصرهم. فهم اليوم، بل لنقل الآن وفي كل لحظة تمر بنا يتزايدون ويكثرون. فالظلم سجنٌ أطبق ظلامه على الأبرياء والمساكين فلا تستطيع الخلاص منه ولا الفكاك. الظلم أشد وأعتى وأقبح من أي شيء آخر، ولذا فقد حرم الله الظلم على عباده وليس الشر؛ لأن الشخص الشرير يمكن أن تتحرك مشاعر الحب والرحمة في قلبه، يمكن أن يتوب ويعود لرشده، لكن الظالم يبقى ظالماً، يبقى تحت سيطرة الشيطان الجاثم. وأيما شخص سمح لظلم أن يتسلل إلى جوفه فقد باع نفسه لشيطان.

وهو أيضاً أصبح في قلوب البشر لا يقاس باللون الأسود، أو الظلام، أو يطلق عليه الشر. فما الشر إلا انعدام للخير، شيء حدث بسبب اختفاء شيء، لكن الظلم شيء يشبه وحشاً ذو رأسٍ مخيف وله مخالب طويلة جداً وحادة، يجثو عليك، ويطبق على نفسك، ويغرس

أظافره في صدرك، ويعض رقبتك لتتشل حركتك وتصبح جزءاً منه .  
فقط آمن بأنك قد أصبحت له.

نحن هويّنا في فخ أعماق من أن يقاس بالمترات أو البعد أو بالمسافة،  
فخنا صنع من حواجز زمنية وجدران مكانية، وعادات وتقاليد،  
وهرب، وخوف، ومرض، وجوع، وألم، وعذاب، وشوق، وحسرة،  
ورحيل إلى الجحيم. هربنا من جحيمهم لنقع في جهنمهم، فكما ترى  
لا فرق، فاليد اليمنى أطول وأعرض قليلاً فقط من اليد اليسرى،  
لكن لهما نفس الشكل ونفس المظهر ويسكنان شخصاً واحداً  
يسمى إنسان، وفي الحقيقية لا يملك ذرة إنسانية!! هل أصبحت  
الإنسانية اليوم شخصاً جيداً لنتخرب به؟! حاشا ذلك، حاشاه!

لاحظتُ طريقتها في الكتابة، وأحسستُ وكأنها كانت تكتب  
بسرعة، أو أن صبرها على تذكر ماضيها المؤلم خانها، لذا حاولت  
قدر استطاعتها أن تدون ما عجز لسانها عن البوح به. وهل يكتب  
الكُتّاب لغير أنهم عاجزون عن اللفظ بما في قلوبهم؟! كلا، لا أظن  
ذلك.

## قالت:

دكتور خالد عبد العزيز: أرجو مسامحتك لأنني سأخذ من وقتك في قراءة  
ما كتبه لك "قد تتعجب لم أفعل ذلك، وتساءل من أكون؟! وما إلى  
ذلك..." لكن أود أن تعلم أنني أكتب لك لأن الكُتّاب بشرٌ يتفاهمون  
فيما بينهم عن طريق الكتابة فقط، لا يفهمون لغة سوى الكتابة، ولا

ينطقون حروفاً إلا ويتخيلون أنفسهم يكتبونها، يقرؤون ما كُتب وينصتون لما يُكتب.

أخذتني عباراتها هذه إلى بعد آخر فهي لا تتحدث معي لأنني دكتور وتود مني أن أعالجها من أَلَمٍ أَلَمٍ بجسدها وتئن بسببه روحها، وإنما تخاطبني كوني كاتباً وتريد مني أن أتألم وأحزن وأبكي وأغضب لحالها المفروش بين صفحات هذه الورق.

### ثم نقول:

هذه الرواية تحكي واقعاً مؤلماً عشته، وعانيته؛ بسبب شيء ويمكنني أن أسميه لا شيء أيضاً، وما كان بين الشيء واللاشيء سوى عالم من السراب المبهم والمتخفي!

فتاة يمنية، تلك أنا... عشتُ طفولتي في صنعاء، يحفني والداي بجناح الرحمة، ويسند كتفي أخوين لي. أحدهما يكبرني بسبعة أعوام، والآخر أصغر مني بثلاثة. كانت حياتنا هائلة مطمئنة، إلى أن حدث ذلك الإعصار الذي عصف ببلادي وأوجع الصغير والكبير. كنت أرى بيتنا جنتي وموطني الدافئ. وكانت مدرستي "مدينة أحلامي" التي رسمت فيها خطوط مستقبلي، وعشت فيها أجمل أيامي. كتبي، دفاتري، ألعابي، آماني، وآمالي، وكذلك طموحاتي!

لكن كل شيء تبدل وتغير وانتهى بلحظة لم أشهد لها مثيل! لحظة تكاد تكون المحطة الأخيرة لقطار العمر الذي بدأ لتوه.

هكذا هي الحياة يا آنسة 'س' فأنتِ مجهولة كجهالة هذا الحرف  
(سين)! أقرأ لكِ ثم أغمض عيني لأتذكر شكلك وأنتِ في  
مدرستك، بين ألعابك، وكتبك، ودفاترك، ترسمين أحلامك  
وطموحاتك، وتحلقين بها أعلى فأعلى، حتى تكادين تلمسين  
السماء ثم فجأة تهوين في هاوية سحيقة، تصيحين وتصرخين  
وتتضرعين، لكن لا أحد يجيب!

لكنك آنستي ارتشفتِ من السعادة كأساً، ونمتِ في أحضان الأمان  
دهراً، ولمستِ يداك يدا والديك ونمتِ في أحضانهما!..

فماذا عن أولئك الذين عاشوا طفولتهم في الشقاء؟ وشربوا من  
كأسه، وعطشوا حينما تاهوا في صحراء! ماذا عني مثلاً؟ ماذا  
أهدتني الحياة غير الآمال المعوجة والحياة المملة البائسة؟ لكن لا  
بأس آنستي هكذا هي الحياة.

تذكرني كلماتك بنجمٍ عالٍ يقبع في سجن الكون البعيد، فأنتِ  
نجمٌ كما أرى محبوبتي، ولكما أهدي هذه المقولة "أيا نجماً في  
أعالي السماء! مالي أراك تتطلعين إلى ذلك البهاء، الذي أعشق في  
هذا العالم؟" فمن يدري آنستي فلعلك طيفٌ لها، جاءني كي يريني  
أن البؤس الذي أنعم فيه لست وحدي، بل هناك من يشاطرني  
أجزائه!

آنستي إن الإنسان هذه الأيام يفعل ما يحلو له ويحلم بالجنة في عالم  
ما بعد الموت.

فترين مثلاً: اليهود شعب الله المختار - على حد زعمهم - يرون أنفسهم أحق بالجنة من غيرهم ولن يدخلها أحد سواهم، وكذلك المسيحيين يسيرون على نفس ذلك النمط، فهم أتباع سيدنا المسيح وهم تحت حمايته، ورعايته، والجنة خاصة بهم ولهم، ولن يمسيها أحد سواهم، وكذلك غيرهم ممن يؤمن بحياة ما بعد الموت، ولن أخفي عليك أن المسلمين - وإن كانوا قد انقسموا إلى مذاهب وفرق - فكل فرقة ترى أنها أحق بالجنة من الأخرى، وأنها ليست سوى لهم! ونسوا أن الله هو خالق الجنة وهو من يقرر لمن تكون، وأن شجارهم هذا ليس سوى ربح هوجاء غبية، تتضمن في جوفها السراب. لأن الجنة ليست لأصحاب الرتب والمراتب بل هي لمن يستحقها ويستحق ذلك المكان المقدس الذي لن يدخله إلا من كان قلبه، وعقله، وروحه سُلَمَاءَ من القذارة والمرض الهادم للأخلاق.

وهل كان الرسل ورجال الدين الصالحين يدعون إلى غير ذلك؟! حاشا. فالكون يشهد على الحقائق، وما الحقيقة سوى شيء واحد: "لن تجني إلا ما زرعت وليس ما حصدت كما يقال!"

فالظلم لا يورثك إلا عذاباً، والسقم لا يورثك إلا هدماً لصحتك. نحن نعيش يا آنستي في عالمٍ فوضوي اختل توازن السلام فيه، ترين الجهل والمرض والظلم والجور في كل أصقاع الأرض، لكن هل هناك من أحد يساعد فقط من أجل الإنسانية وليس من أجل المصلحة والشهرة؟ هل ترين إنسانيون حقيقيون؟! وإن رأيت فهم قلة قليلة، فزمن الحرب الذي يقود إلى الهاوية قد اقترب وأصبح رأي العين لك.

## حسناً لأكمل لك:

عمّ الخراب مدن اليمن، ومن ضمنها صنعاء، وتم تحطيم ما يسمى السلام والأمان - في نظر الكثير - بين أبناء وطن واحد، وأخوة في دين واحد، وشركاء في أرض واحدة.. استشهد أخي الأكبر، ولا أدري هل أقول استشهد أم قتل؟ فلم نعد نعرف من قتل ومن قُتل؟ ومن عاش ومن هلك؟ عمّت الفوضى البلاد بشكل يرثى لحال الوطن ولا يحسد عليه، وينبئ بأن القادم شيء مخيف ولا تحمد عقباه. انتشرت الأسلحة بين الناس بشكل فضيع وأصبحت إقامة الحدود في يد العابثون المعاتيه.

أصبح والدي في تلك الأيام خائفاً مرعوباً، لا تفارق الصفارة وجهه وكل يوم يعود فيه إلى المنزل يحمّد الله كثيراً أن أمد في عمره يوماً آخر لكي يحضنني ويحضن أخي الصغير، فحالتنا أصبحت لا تطاق والعذاب يشتد ويشتد، وكنت كلما سألت والدي: "متى الفرج" تُجيب: "من بعد ظلام الليل الحالك، فجر ساطع ونهار مشرق" وكنت أردد في نفسي "أي نهار يا والدي، وأنا أرى والدي يتقلب في جمر الدنيا؟ خائف يترقب مصيره، منتظر نهايته في أية لحظة. وإذا ما كان لسيدنا موسى عليه السلام ناصح ينصحه أن يفر من مصر قبل أن يلقي حتفه من فرعون وآله، فمن عساه ينصح والدي؟ فقد قتل الابن والأخ وفر الصديق والرفيق والشقيق والزميل والجار ولم يبقَ سواه... أترى كان والدي يفكر في

الرحيل! لكن إلى أين الرحيل؟ فليس لديه سوى احتمالين إما الموت في الديار، أو الموت في السفر، وفي كلا الأمرين موت لا محالة منه.



(5)

## ما سرّ قوتك؟!

للحبّ أوجه كثيرة وعديدة، الحب أبعاد مديدة ممتدة متشعبة،  
الحب مقبرة العشاق وليال سهر للحالمين.

أنتشي كلما قرأت عبارات تصف الحب وتوجه سفنه نحو شاطئ  
قلبي. في الماضي كنت مغامر حالي كحال أخي غازي - فعلى  
الرغم من انه كان لي اب عوضا عن والدي الحقيقيين إلا أنني  
أفضل ان أتذكره على انه أخ وصديق وقدوة ومثال - فكلماته لا  
تزال تدق شغاف قلبي، ونصائحه تمثال شامخ في باحة أفكاري  
ومعتقداتي، فقد كان شخص يحمل في قناعته إيمان عميق يدل على  
رفضه للعبودية والخضوع والإذعان للباطل، فقد كنت اراه عملاق  
في فعله وحكيم في قوله ولا يفعل ذلك الا لناس وليس لنفسه.

- هل تعلمين يا ربا أن كاتبة تلك الرواية من صنعاء؟

- أي رواية؟!

- ما بالك نسيت بهذه السرعة. الرواية التي أهديت اياها

- أها ذكرت... صنعاء!! وما في ذلك؟

- لا شيء مهم، أنسي ذلك.

لا أعلم لم أذل نفسي للحديث معك؟ لم أحب الاستماع لصوتك؟ لم أحب قراءة حروفك المتقطعة وكلامك القليل وصمتك الطويل الذي يحرقني؟..

إلى أي مدى يا ترى تصل نارك؟ وإلى أي قطر في العالم ستظلمين تجتاحينه بهدوءك المستفز وتأملك اللامنقطع.

متى تثور حروف قلبك عليك؟ لتخبرني بكل ما خفي وراء صمتك، بل متى يمكن لهذا الصمت أن ينكسر؟..

أذكر مرة عندما غضبت منك وكتبت لك، ولا بد لي أن ينجلي ولا بد للصمت أن ينكسر. فأجبتني ببرود "هل كنت تقصد القيد؟". بضع كلمات مقتضبة ترمينها على عطشى صوتك، ثم صمت مستميت. فراحت مشاعري تصرخ وتصيح.

"آه منك يا ربا! لم كل هذا العناد! ولم تتغابي إلى هذه الدرجة؟"

ما شأني وشأن القيد؟ فأنت لا تلفك قيود من حديد بل قيود صمت... وصمت طويل جداً...

يقال "أن كل ما تحتاجه الأنثى هو الأمان، والقليل من المال لتسير به حياتها"... وأنت أأست بحاجة إلى الأمان؟ أو إلى شخص يحميك ويقف بجانبك وتستدين عليه؟ أأست أنثى مثلهن! أما لديك مشاعر تفتاتين منها وتشعرين بالعالم الخارجي؟ من جدارك! من جارك الذي إلى جوارك! ما سر قوتك وجبروتك وكبريائك هذا!

أكاد أجن حقاً بسببك، فلا أعلم من أي باب أدخل فيه إليك، ولا أجد سبيلاً يهديني لك. ثم لم كل هذا الانغلاق المحكم والموصد الذي لا يسمح بأن يتسرب منه، ولا أن يدخل له نسمة هواء فحسب؟

## (6)

### الهاوية!

يقول الأديب السعودي محمد حسن علوان: "يبلغ الفتى على لذة، وتبلغ الأنثى على ألم".

وهذا ما لمستته فعلاً في روايتك آنسة "سين"، فلأنتِ أنثى قد حكم عليها الدار والجار وأصحاب القرار، إن بلوغكِ سيسجله تاريخ الإنسانية بأنه تاريخ شؤم حل عليكِ ولاسيما بعد أن **قرأت لك هذه:**

أحياناً أتفقد في ماضي البأس المترع بالألم والخوف وتسري في نفسي رهبة وخوف وخشية من المستقبل، فأنا ضحية الماضي، وأنين الحاضر، وبكاء المستقبل. لقد بكيت كثيراً حتى جف الدمع من عيني وأصبحت شخصاً لا يمتلك دموعاً ليكي، ولقد حزنت كثيراً حتى أصبح الحزن شيئاً لا يحزنني ليس لأنني أعيش في عالم من الفرح. كلا! ولكن لأنني أصبحت شخصاً مجرد من المشاعر. لم أعد أعرف كيف يكون الحزن وما رائحته وطعمه؟ وكيف يكون الفرح ما لونه وشكله؟ وهل للمشاعر حواس تحس بنا لنحس بها؟ أو نستطيع أن نشعر بواسطتها بما حولنا! وتأتيني الإجابة من أعماقي سريعاً: " لا أعلم فأنا شخص لا يسكنه سوى الفراغ الكبير كفراغ السماء العظيمة وفراغ الكون المتسع، تسكن جوفي

مجات من الأشياء والأشخاص والمسافات ولكنهم ليسوا سوى سراب  
لأنني عالم فراغي فحسب".

فكما ترى فلقد أصبح العالم من حولنا يحفه الألم والأفكار المهشمة المبنية  
على الظلال، وتقاليد هشة رسموها وجعلوها دستور إلهي وقران مبجل.

دكتور خالد... كنت في السادسة عشر من عمري، فتاة في عمر  
الزهور، بريئة مثل الاطفال، أحلامي بسيطة جداً... بسيطة جداً. حتى  
حصل ذلك اليوم الذي كنت في نظرهم مجرمة، وما كان جرمي سوى  
أنهم هم من صنعوه ليّ، ثم حكموا عليّ، فكانوا هم المجرمون، والقاضون،  
والمحامون، والشاهدون، والعدالة، والضلالة، وأما أنا فقد أدت دور  
الشخص الذي يتحمل الذنب بلا ذنب.

كان في انتظاري أربعة شباب في سيارة! ومعهم فتاة تصرخ بأعلى صوتها  
تناديني أن أنقذها. صوتها بدأ لي غريب جداً! لكنني ظننت أن الحالة  
التي كانت عليها هي سبب ذلك. شعرت بالخوف، والرعب الشديد،  
لاسيما أن في الجوار لم يكن هناك أحد! تجددت في مكاني ولم أستطع  
الحركة، تصلبت أفكاري وكنت فقط أشاهد ولكن لا يمكنني الحراك..  
مكبلة بما تراه عيني وتسمع به أذناي.

هرعت الفتاة تجري نحوي بأقصى سرعة، كانت عباءتها واسعة عريضة  
متسعة. جثت تحت قدمي المتجذرة بالأرض. التفتت عيني إليها وأنا  
أرى ذلك المشهد الدنيء الذي خيل ليّ انه حدث قبل ظهوري كشاهد  
على تلك الجريمة.

استعدت وعيي وركعت لأرفع الفتاة. كنت أدرك تماماً أنني لن انجو من هذه الذئاب الجائعة، فقد أصبح معظم بشر هذه العالم حيوانات لدرجة أن الحيوان نفسه أصبح يشمئز من أفعال بني البشر أنفسهم.. ومن سواهم تراهم قد عاثوا في الارض الفساد؟ الأخ ينهش في لحم أخيه، والولد عاق لوالديه، وكل شيء مختلف وكل شيء ينادي في أعماقي.

"What this word, we are living in"

أمسكت تلك الفتاة بكلتا ذراعيها لعلني اساعدها، وحينما التفتت إلي... حدث ما لم يكن في الحسبان ابداً.

لم أصدق ذلك في الماضي، ولم أصدق وقت ألمي، ولم أصدق في وقتي الحاضر، ولن أصدق في وقتي الآتي كذلك، ولا حتى في العمر المتبقي لي، ولا المستقبل الذي حلت به!

انها اللعنة الشيطانية التي دخلنا إلى متاهاتها عن غير قصد وعن حسن نية...

كم هو محزن ومخزٍ لنا نحن العالم البائس، أننا صنعنا بؤسنا بأيدينا لنشقى به طول عمرنا، وكأننا كتبنا على لوح اقدارنا - لنعش بؤساء حتى آخر نفس في حياتنا - لا أعلم هل طيبة قلوبنا هي السبب؟ أم جهلنا بقذارة بعض البشر حملنا على ذلك! وهل أخذتنا الحياة على حين غرة؟ أم سببنا من شاطئ البراءة إلى بحر الهلاك بأيدينا! وهل ما حصل لنا هو بسبب أقدارنا؟ أم بسبب أقدامنا التي قادتنا إلى الهاوية! وتباً لها من هاوية.



(7)

## إلى متى سنظل في 'هكذا'؟

يقال أن: "الشعرة في العين تكون كالجبل العظيم". لكن ماذا عن الحب إذا كان في القلب! هل يكون كالسموات الكبيرة؟ أم كالليل الحالك؟ أم كالثقوب السوداء التي تقودنا نحو الهاوية السحيقة!

الحب أعمى! نعم، لكنه أصمّ أيضاً، فهل رأيت عاشقاً يسمع لأحد يمنعه عن محبوبه؟ وهو أيضاً ليس أصمّ أو أعمى فقط بل هو عفريت متخفي؛ يلبسك ثم يتصرف فيك كيف يشاء (يمين يمين!)، يسار يسار!) يتلون ألف لون، ويتلبس ألف وجه، ونحن نبقى ونبقى، ولا نعرف إلى متى نبقى في الضلال، ولا متى نرى نور الحق الذي يهدي أفئدتنا إلى الطريق المستقيم، الطريق الذي يحلم به كل من أراد للكون السعادة.

وكذلك هي، ترى ذلك معي، نريد تغيير واقعنا البائس، وإشعال شمعة الأمل في كثير من القلوب الخافقة هماً وغماً وحزناً وحسرة. أن نرى السلام يرفرف في أعماق قلوب البشر، لا أن يرفرف في رايات وهمية وأصوات مخفية ونداءات باهتة واهنة. وكنت أنا وهي يوماً بعد آخر نسعى لذلك ونحاول له.



وأكثر ما شجعني على التمسك بها ، يوم أطلت عليّ في مكتبي  
لتحضر لي كوباً من القهوة ، ومجلة كانت تحملها في يدها!

- خذ اقرأ.

- ماذا أقرأ؟!

- اقرأ عن السلام والأمان البشري في هذا الكوكب.

نظرت لها في حيرة وقلت لها: "تعلمين أنني أكره العقول العفنة التي لا  
تسكنها إلا القمل والبراغيث ، ولا يعجبني أن أقرأ ترّهات أوجع بها  
دماغي الصغير".

- أتساءل!

- عمّ تتساءل؟

- إلى متى سنظل في 'هكذا'؟ إلى متى سنظل نقبع تحت عبادة  
أشخاص يظنون أنفسهم آلهة ، وأنهم مجردون من الأخطاء ،  
ويجب علينا السمع والطاعة وقول " صدقت " في كل ما  
يقولون ، ألا يجوز لنا الرفض؟

- لا ، لا يجوز فنحن مجرد أشخاص ليس لنا من الأمر شيء!

- هل تعلم لماذا وطننا العربي أصبح بهذا الحال؟ ستسأل لم؟

- قطعاً - وسأجيبك: بسبب حكامها العملاء ، وعلمائها

الأغبياء ، وأذكياءها الأشقياء الذين يستغلون الضعفاء

الجهلاء.

- تابعي ما تقولينه...

- عبدنا سادتنا بأمرٍ من علمائنا لأنهم كما يصفونهم "ولاة الأمر" وعن أي أمر يتحدثون ؟ ولاة أمر الفساد، أم اضطهاد العباد، أم نهب البلاد أم ماذا؟
- نسيْتُ أمراً آخر! لا يجوز لنا أن نقول للفساد قف لأن الشعب الفاسد هو من يقول قف. وهؤلاء الفاسدون يقمعون الحريات، وأصحاب العقول الناضجة يقبعون في السجون وينامون على جدران السجون واقفين، ويستيقظون على أصوات الجلادين والقيود! يرون الإسلام بمنظارهم الأسود، ولا يسمحون لأحد أن يرى الإسلام بالمنظار الإسلامي الحقيقي، فهم أصحاب القداسة والعقول المفكرة المدركة للأشياء فقط، والأمر بأيديهم فهم ورثة الأنبياء وأمرهم يطاع ولا نقاش فيه!!.. فلو جئنا نرى ما الفرق بين أمة كانت من أعظم الأمم: ذو مجد مزدهر، وعلم منتشر، وإنسانية عالمية، لوجدنا أن قوانين الحياة البشرية كانت تطبق بأبهى صورة.. فالإسلام دين شرعه الله، والله وحده هو خالق الكون وخالق تلك الشرائع والعالم بكل شيء يسير فيما خلق. وهو وحده يعلم أن أي أمة أخلت بهذه الشرائع الكونية سوف تلقى حتفها، ولذا فكم نبهنا الرسول ﷺ - وكذلك جميع الأنبياء والرسل - بهذه الشرائع. فلو ننظر إلى تلك القوانين في وطننا سنرى اختلافاً واسعاً وكبيراً، فشتان بين الحق والباطل؛ فالحق ضائع وضعيف والباطل فقوي بقوة المستنفعين منه.. الصدق باهت وخافت، والكذب واضح ومنتشر.. الأمانة لم يعد لها أثر،

والخيانة ترقى وتظهر، العلم أصبح لأجل النفس وليس  
الأنفس، والرشوة أصبحت شيئاً أساسياً وضرورياً في التعامل،  
وإن لم تمتلك واسطة فلن تتقدم قيد شعرة إلى الأمام. المظلوم  
أكل حقه، والظالم كل ثانية تكبر بطنه، المجرم أصبح  
الجلاد والعبد الصالح أصبح يقال عنه إما إرهابي أو عميل  
الضعفاء، وهل هناك عميل لضعفاء؟ نعم في زماننا أصبح  
ناصر الحق مذنباً، وذنبه الوحيد أن ضميره ما يزال يقظاً ولم  
يمت بعد. أصبح الجندي يقتل ويسرق ويشارك في الفساد ويقبل  
الرشاوى، بعد أن كان الحصن الحصين، والعبد الأمين،  
والصادق المجتهد، والمنقذ المدافع. إنني أصبحت أخشى أن  
يسألني الله - يوم الحساب - فيما كنا، فلا يسعني وقتها إلا  
أن أتلو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾..  
وماذا عساي أن أجيب غير ذلك، فاليوم نحن مكتمو الأفواه،  
مقيدو الفكر، لا نجرؤ أن نسمح لأفكارنا غير الالتفاف  
والتمحور على نفسها كقوقعة أو كصدفة فحسب! حقا كم  
نحن غرباء في هذا العالم! "فنحن في هذا الوطن إما: وطنيون  
في المنفى ! أو منفيون في الوطن". فاختر لنفسك مكاناً بين  
هؤلاء... قبل أن يختاروا لك ذلك، ويحددوا مصيرك الذي حدد  
من قبل.

قلت لها ذات يوم عندما كنت شارد الذهن : هل أجرؤ على قول شيءٍ  
مضى إلا عن غفلة أو شوق أو حنين لذلك الرجل الذي استحوذ على

كل مبادئي وأفكاري! هل تعلمين يا ربا ، أنه إذا كان الطعام غذاء  
الجسد والموسيقى غذاء القلب والروح فإن القراءة والكتابة غذاء  
الفكر ، فالأشخاص الذي لا يكتبون ولا يقرؤون هم مجموعة من  
الأدمغة الفارغة لا أكثر... هكذا كان يقول أخي غازي دائماً.

- هل لك أخ اسمه غازي؟!

- ماذا ، هل قلت ذلك؟

- أجل قلت ذلك...

- أصبحت أهذي بما لا أدري!!

التفتت إليّ مطولاً بنظراتها التي تجعل جبل الجليد في قلبي يذوب من  
نارها وحرارتها ، وقد بدت عليها ملامح الدهشة من إجابتي وكأنها  
لم تصدق ما قلت. ولولا أن دخل زميلانا لما استطعتُ أن أهرب من  
نارها أبداً.

هناك أسراراً تظل أسيرة قفصنا الصدري ، أشياء لا نبوح بها ونخاف  
إطلاقها نحو حريتها ، ليس لأنها غالية علينا كمصفور وديع جميل  
يسكن قفصاً جميلاً ، كلا! لكن لأنها مؤلمة و محزنة جداً. فأخي  
غازي ذكرى ، والذكرى لا يمكن أن تتقاسمها مع شخص آخر  
سوى نفسك وذاتك وأنت!

(8)

## ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

عزیزتی آنسة "سین" اشتريت أنا والعالم روتجين بهذا الاسم "سین" فهو قد أطلقه على الأشعة التي اكتشفها، أما أنا فقد أطلقته على اكتشافی لك، فأنتِ اكتشافی فی هذا العالم. شخصٌ یقتسم معی ألمه كما سأقتسم معه ألمی. سنكون اكتشافین لبعض، سراباً تارة وحقیقةً تارة أخرى. دمتُ عینای عندما لمستُ ماضیک بیدي الهشة المرتعشة، لمستہ بعد أن أبحت لي بجزء منه، وكلما قرأت لك أكثر زدت إیماننا بأننا وجهان لعملة واحدة یطلق علیها البؤس، لا یتعامل بها إلا البؤساء، فی مملكة الحياة التعیسة، الذي استترف ماءها وهواءها أولئك عديمو الأخلاق والمبادئ، وأصحاب الضمائر المنطفئة المیتة. أصبحت أصطحب روايتك أينما ذهبت، فقد أصبحت جزءاً منی، شیئاً لا یمکنني نسیانه. فأنتِ وقصتك معی فی بیتي، فی سيارتي، فی عملي، فی كل وقت، وفي كل مكان یحل فیہ جسدي!

## حسناً لأکمل لك:

عشتُ ثلاثة أيام فی قعر الجحیم، وزبانية جهنم هؤلاء ليسوا ملائكة العذاب بل هم شياطين الدنيا . وكثيراً ما أستغرب فرح البعض حين یقال له:

"أنت شخص ملائكيّ الطبع" نسيّ ذاك، أو -أولئك- أن الملائكة - أيضاً - لهم صفاتٌ خاصة، فمنهم ملائكة العذاب، ومنهم ملائكة الرحمة، ومنهم ملك الموت النازع لأرواح البشر، وغير ذلك. ولهذا آمنت أنه لا رحمن ولا رحيم في الدنيا إلا الله، فهو وحده قد ملأ كل شيء رحمة وعلما. وقد يقول وسواس الإنسان "كلا، فالله يعذب البشر أيضا ، فهو شديد العقاب" لكن ليعلم هذا الوسواس أن الله يعذب أولئك الذين تكبروا في الأرض وتجبروا، أنه فقط ينتقم لمن لا قوة له ولا حول إلا به، فهو ينوب عنهم في أخذ حقهم ممن سلبه منهم، إما في الدنيا وإما في الآخرة.

مضت تلك الأيام عليّ كأنها قرون طويلة. امتدت منذ الأزل وحتى يومنا ذاك. بُتر فيها إحساسي بالعالم الخارجي، وأصبحت شخصاً خالياً من المستقبلات الحسية والحركية، فقدت قوتي وفقدت كرامتي وفقدت أغلى ما تملكه الأنثى "شرفها"... كنت أرى الموت بعيني، وأسمع أنين القبور بإذنيّ وقلبي.

فالقلب يسمع إذا كانت الأذن في صمم \*\*\* والعين تبصر جبلاً حزناً قم

في صباح اليوم الرابع أُلقي بي قرب باب بيتنا، وجدني والدي في حالة سيئة للغاية، كنت أقرب للموت منه للحياة، هذا إذا لم تكن روعي قد ماتت حقاً. بدى الخوف عليه ثم انتفض من مكانه فزعاً، وراح يصرخ وينادي باسمي ويحتضني بقوة ويصيح " أين كنت؟"

كنتُ ملقاة الأرض لا قدرة لي لأتحرك قيد شعرة، خائرة القوى،  
ضعيفة القدرة، قليلة الحيلة، محطمة الطموح والأحلام، مكسورة الخاطر،  
كارهة للحياة، ولا شيء في عقلي غير الفراغ، وكل شيء بدا لي لا شيء..  
حملني والدي إلى الداخل، ودموعه تسبح من كلتا عينية كنهر صافٍ  
وبراق، على خده المليء بالإيمان، وعلى تلك اللحية البيضاء الكثة التي  
تزيده في قلبي وقاراً وهيبه.

كان والدي يحدثني ولم تكن لديّ قدرة أكثر من النظر إليه، إلى عينية  
المليئة بالرعب والخوف عليّ، إلى عقله الذي يفكر فيما حل بي، وإلى  
مستقبل ماذا سيحل بي... يمسح على وجهي المليء بالكدمات، وأشعر  
بارتعاد يده وهي تتفحص وجهي خلية خلية... ما بال وجه والدي تجهم  
هكذا يا ترى؟ أهى حالتي المزرية! أم تراك فهمت يا والدي الأمر!؟

مرت أيام متتالية وحالتي كما هي، وحدة مطلقة، وفراغٌ يحف جوفي،  
وتابوت يرقى بروحي إلى السماء. فهأنذا أيها الموت ألا تسمع! ألا تبصر!  
ألا ترحم!! ولا إجابة سوى قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

غبتُ عن مدرستي حينها. وكلما سألت المعلمات عني أجابتن والدي أنني  
متعبة جداً ولا أقوى على مغادرة المنزل، ولكن والدي أخطأت في  
إجابتها تلك، فأنا لست - فقط - لا أقدر على مغادرة منزلي فحسب، بل  
كنت حقاً لا أستطيع مغادرة غرفتي وسريري وذلك العالم الفراغي الذي  
انغمست فيه!

يوما بعد آخر وجميع من حولي يحاولون التهوين عليّ "لست أنتِ المذنبة".  
"الله ينتقم من مَنْ كان السبب". "هذا قدر، وأجرك عند الله كبير".  
لكن أشلاء روجي كانت تردد "جميلٌ قول ألسنتكم هذه، لكن ماذا عن  
قول قلوبكم؟". فقول اللسان يذهب أدراج الرياح مع مرور الوقت، لكن  
قول القلب يتردد كصدى متدفق كلما خفت رنته، دقت شوكة الألم  
لتظهر الرنة من جديد!

لا أخفي عليك سيد خالد أنني لم أستطع توضيح ما كنت أمر به، وما  
كانت عليه حالتي فعلاً، لأن ما مررت به كان ألماً على هيئة فراغ، وفي  
عالم الفراغ فراغ . فراغ لا يكتب، لا يحكى، لا يقصّ، لا يُشكى ، ولا  
يحسّ به . فراغ فقط وشعورٌ بالخدر الكلي، والإدراك الوحيد الذي  
أحسست به حينها، هو الشعور بأنّ الحياة تافهة لا قيمة لها....."

يقول القائد الثوري تشي جيفارا: "كنت أتصور أن الحزن يمكن أن يكون  
صديقاً، لكنني لم أكن أتصور أن الحزن يمكن أن يكون وطناً نسكنه  
ونتكلم لغته ونحمل جنسيته!".

هكذا نحن، نعيش في مملكة الحزن الأبدية. أصبحنا شعبها، وأصبحنا  
وطننا، والفرق الوحيد بين وطننا هذا ووطن الشعوب الأخرى، هو أننا  
لا نمتلك حاكماً يحكمنا ولا سيّداً فاسداً يترأسنا، بل كلّ منا سيد لنفسه  
ولأفكاره. لدينا مذهب واحد هو العدالة، ودين واحد هو دين الحق. نسير  
في قوافل الأيام، وتحت ظلمة الظلام والأحزان، صمتنا كلام، وكلامنا  
أحلام. لسنا بعيدين عن الواقع ولسنا قريين منه أيضاً.



(9)

## الأملُ لا يُطعمُ جائعاً

تعلمتُ أنّ أيّ أمة لا تقرأ هي أمة جاهلة، وأنّ أيّ أمة تقرأ ما يضرها لا ما ينفعها وتظنّ أنه ينفعها هي أمة غبية مظلمة جاهلة. وأن أي أمة عبدت بشراً وجعلت منه إلهاً يطاع في كل ما يقول، هي أمة فاسدة تعبد فاسداً؛ لأن الفساد إذا لم تطلق نحوه صرخة غضبٍ قائلاً: "قف" سوف ينمو ويكبر ويلتهم كل من حوله!

سترى الكثير من أولئك النائمون على بطونٍ خاوية، وفي أنفسهم الكثير، ولكن هذا الكثير مكبلٌ بالألم. تتمنى أفواههم احتضان السعادة لكن السعادة أبعد ما يكون عنهم. تتحسّس أياديهم الباردة سراباً من دفى، لكنه يبقى - مهما كان - مجرد سرابٍ لا أكثر ولا أقل. أملهم في الحياة قد ضاع، وذلك المدعو بـ "التفاؤل" قد انهار في داخلهم، ولم يعد لديهم شيء يقولون عنه أنه 'على وشك الانهيار! ستسأل قطعاً: من هؤلاء؟ وسأجيبك: "هم مجموعة من الضعفاء الذين أطبق عليهم القدر طبق الحد بالحد، فابحث عنهم هناك في ذلك العالم الكئيب وثق أيضاً أنك إذا رأيت طفلاً جائعاً، فاعلم أن رزقه قد سرق من قبل مسؤول جشعٍ طامع! وهل الحياة سوى ميزان

أرزاق! فأَيُّما اغتتت كَفَّةُ ميزانٍ ثقلتُ، وعلقت الكفة الأخرى في الهواء، تعاني الألم والمرض والجوع والبؤس!"

يقال: " إنَّ الحياة جميلة لمن يراها جميلة، وبائسة لمن يراها بائسة" هراء وترهات ليس إلا، الحياة جميلة لمن باله مرتاح، وقلبه مرتاح، ودخله مرتاح، ورزقه موجود، والأمان يسوده من كل ناحية... وأما غير ذلك فهي مجرد أوهام نخدع بها أنفسنا ليهناً ويرتاح بسرقة راحتنا غيرنا!

ولابد أنك ترى كم أن العرب قد جعلوا للعقل مكانة عالية وسامية! لدرجة أنك إذا قمت باستخدامه ولو مرة واحدة، رأيت عالم الدين يصفك بالمتزندق المرتد الذي يقدم العقل على الدين، ولرأيت أصحاب السلطات يصفونك بالعميل للكفار الذين يريدون أن يلوّثوا عقول الفتيات والفتيان بالثقافة المشؤومة، خشية على مصالحهم، وترى أهل العادات والتقاليد يصفونك بأنك شخص ينكر التاريخ والحضارة العريقة المجيدة التي لا تختلف عن كونها مجرد خزعبلات وهمية وطلاسم كهنوتية مليئة بالجهل.

ذلك حالنا نحن العرب حالياً، إذا ما جئنا لنلتفت إلى حضارة أو أخرى لا نأخذ منها إلا ما يضرنا لا ما ينفعنا، ظناً منا أننا نتطور ونرقي، والغرب في الحقيقة يقدمون لك الحرية بيد، وباليد الأخرى يستنزفون كل ما تملك!

- هل انتهيت منها؟

- من هي؟!

- القصة المهداة لك..
  - اها تقصدين الرواية ، لا ليس بعد.. تلك الرواية تحتاج إلى سنين لأقرأها!
  - أحجمها كبير؟!
  - أجل هي أكبر مما تتوقعين ، وأيضاً فلتعلمي أن الأشياء ليست كبيرة بجسدها الخارجي ، بل بما تحمله في جوفها ، فالإنسان العظيم ليس ضخمة الجثة وإنما ضخمة الفكر والعلم والمنطق ، الشخص الواعي ، المدرك لما يفعل ، المتفكر بالكون المحيط ، الشخص الذي لا تتقاذف به أمواج مشاعره ليرتطم بجبال الحياة ، وإنما الذي يقدم عقله على قلبه.
  - ما شاء الله فيلسوف!!
  - لستُ فيلسوفاً فحسب بل حكيمٌ أيضاً!!
- "المرأة تفهم الرجل من عينيه" مقولة ترددها الإناث كثيراً على مسامع الذكور ، وأقول: المرأة كائنٌ غريب الأطوار لدرجة أنك إذا استطعت أن تفهم تقلب مزاجها يمكنك أن تتحكم بها كيفما تشاء!
- ف قديماً - في معظم الحضارات السابقة - كانت المرأة تُرى على أنها آلة للولادة فقط! مجرد كائن حي ينتج الكثير من الأجيال القادمة التي تحمل نفس السلالة.
- وكلما اختلفت الحضارات ، ستجد حتماً اختلافاً لآراء الرجال حول النساء ، فالبعض أصبح يراها على أنها سلعة للمتعة ، والبعض يراها

مجرد خادمة خلقت لتوفير الراحة لآدم، والبعض يراها على أنها خلقت لتلد الرجال، و أما الأكثر تفنناً فقد وصفوها بأنها مصدر للعار وأنها مجرد كائن ناقص العقل و الدين!.. وغيرها من الآراء!

ولكن إذا أردت رؤية وضع المرأة في الوطن العربي فسترى أن كل الصفات والآراء التي أطلقها رجال الحضارات والمدن والأقوام السالفة، يطلقها الرجل العربي على المرأة وليست تلك فقط بل وأخرى اخترعوها حديثاً!

يتظاهر بعض علماء الدين بأن الإسلام الذي يعتنقه يرفع من شأن المرأة، وليس كذلك فحسب، بل ويلقون محاضرات وأمسيات ومواعظ حول مكانة المرأة لديهم، وفي نهاية المطاف يقولون "يجب على المرأة أن تقرر في بيتها فهي عورة أينما خرجت، وحيثما وجهت وجهها".. و إذا سألته "هل هي حيوانٌ أليف تربط عنقه وتحبسه داخل دارك؟" يرد عليك " بل لأنها ثمينة وغالية علينا، ولا نريد لأحد أن يراها ويلمسها". ولأنها غالية عليهم يتحتم عليهم اضطهادها وحبسها. أي عقل وأي فكر هذا! وكيف يفكر أولئك الناس الغريبون، حقاً أستغرب!

- أيتها الأمل المشرق، الفجر المضيء، القمر الساطع، الشمس الحارقة الدافئة، أيتها الجليد القاسي، البحر المتلائي، المحيط الغامض، يا من سكنت نفسي واستحوذت على كل شيء أراه، أسمع، أتنفسه، وأبحر في الخيال معه. أنت ذاك الباب المضيء القادم بعد كهفٍ طويلٍ مظلم، أنت فاتتني وساحرتني

وأسطورة الكون، وآية الله في الجمال. وليتك تفهمين! فقط  
تفهمين من تكونين!"

ترد بضحكة طويلة؛ على كلماتي التي قلت لها أنها وصفُ كاتبٍ  
لحبه الكبير الذي يكنه لمحبوبته.

فتجيب:

- الأمل لا يطعم جائعاً، ولا يروي ظمآنًا، الأمل إفطارٌ جيد  
وعشاء سيء، وضوء الفجر ما هو إلا مرحلة زمنية لبضع  
دقائق، حتى يحل النهار، فما هو سوى فترة انتقال من حال إلى  
حال، والقمر ليس بآية في الجمال بسطوعه، وإنما هو لصٌّ  
يسرق ضوءه من الشمس ليبدو أجمل! تماماً كامرأة قبيحة  
تكثر من وضع مساحيق التجميل لتبدو أجمل! والشمس نجمٌ  
كوني ملتهب وكثرة التعرض لأشعتها تردي بك مريضاً  
محموماً وألف علة وعلة! أما الجليد فقد صدق فهو حقاً  
قاسي، ومن يتيه في البحر أو المحيط لن يتفنن في وصف جماله  
ويتغزل به وإنما سيكون كل رجاءه شربة ماءٍ تروي عطشه.  
(ثم التفتت إليّ وقد بدت على وجهها لمحةً من الجد وقالت:  
الحب ليس ألفاظاً تتغنى بها، ويرقص على أنغامها الشياطين،  
الحب لا يقال، لا يكتب، ولا يقرأ، فقط صمت ونظرات  
طويلة لا تنقطع أبداً، فما أرخص الحب عندما يكون كلاماً،  
وما أغلاه عندما يكون قدوة وهياماً. فمن أحب ورأى نشوة

السعادة تعتريه، فقد ذاق لذة الحب أما عدا ذلك فهو وهمٌ  
ولعب مراهقين!

## (10)

### "ليس كل قاتلٍ ولدَ قاتلاً"

عندما أرى الكون بعينيكِ آنسة "سين" أرى الغرائب، أرى فيك شخصاً خُذع بجمال الكون حتى افتتن به. كان يؤمن إيماناً جازماً بأن الإنسان كائن بريء، يسير على فطرته النقية، وما كان انقلاب جيناته إلى 'شخصٍ شرير' ليس إلا بسبب التغيرات التي طرأت على هذا الكوكب! لكن ذلك وهمٌ خُدعت به، لم تعلمي أن الإنسان كائن يمكن أن يتعلم، ويقلد حركات وصفات وأفكار غيره من المخلوقات. ولد الإنسان على فطرةٍ نقية ولكن مع مرور الوقت ترين صفاء تلك النفس، يتلوث شيئاً فشيئاً حتى يصبح ذو خصالٍ كدرة كَكُدرة ماءٍ المستنقع! فليس كل قاتلٍ ولدَ قاتلاً، وإنما نشأ ونما في بيئة يسودها القتل والظلم، فأَيُّ مظلوم يود أن يقتص ممن ظلمه حتى وإن ظلم واستعلى! الإنسان يعشق الانتقام، عندما ألمس هذه الرواية، أتذكر كل ألمٍ تخوضه فتاة في هذا العالم، كل حلم تحطم، كل أمل كُسِر، كل حق اغتصب، وأكثر شيء أتذكرك أنتِ، فأنتِ عالم من الأحرف الغير منتهية، والأسرار التي لا ولم تُكشف!

**حسناً اكمل لك:**

يقال: "لا بد من ظهور الحق يوماً، ولا بد لصفحة الباطل والظلم أن تطوى! لكن أليس الأجدد بنا أن نقول: "بسواعد الأبطال المخلصين، ستطوى صفحة الباطل والظلم، ليحل مكانه الحق والأمان" أم أننا لا نجرؤ على قول ذلك، فنحن في زمن لا يسكنه الشرفاء، بل يسكنه العملاء والخونة والأغبياء!!

بحث والدي مطولاً عن هوية أولئك الأربعة. وبعد جهدٍ جهيدٍ تم العثور على ما يُوصل إلى هويتهم، بعد أشهر من البحث المتواصل، وفي إحدى الليالي، ناداني والدي بصوتٍ قوي، وكأنه يستعد لدخول حرب قصاص! حربٌ لن تراق فيها الدماء ولن تُزهق الأنفس، فقط إعادة شيء من الكرامة المكسورة، والشرف المدفون، على حد وصفه!!

جلستُ بالقرب من والدي، فالتفت إليّ وقال:

- خذي هذه الصور وحاولي تذكر الأربعة الـ....الذين اختطفوك.

انصدمت مما سمعت وكاد عقلي يزيغ لذلك، وأجبت بصوت حزينٍ مليء بالرعب:

- لكنني لا أحب أن أتذكر شيئاً مما حصل!

بدت علامات الغضب على والدي وصرخ قائلاً:

- ماذا يعني أنك لا تحبي أن تتذكري! اصنعي ما قلته لك بدون اعتراض.



لم أستطع مقاومة غضب والدي وحدثه حينها، فأجبت بصوت مكسور:  
"حسناً".

أخذت عيني تتأرجح بين تلك الصور، والدموعُ تنهمر كأنهار متدفقة قد  
حلَّ عليها مطر صيف عاصف، ذو سحابٍ سود ثقال! لتقف فجأة عند  
أول وجه، كان ذلك القبيح الفاجر الحقير، هو بعينه وبابتسامته القذرة ،  
جلست أهدق به طويلاً وأسناني تصطك ببعضها، وأصوات الماضي  
تتقاذف إلى حاضري. اشتدت قبضتي على وجهه وكم كنت أتمنى لو أن  
باستطاعتي أن أدوس على ذلك الوجه التافه !!

انتبه والدي إلى تقطب حاجبي، واحمرار وجهي، وتسمّر عيناى على تلك  
الصورة، لتمحو تلك الابتسامة التي تنبئ بسببها فتيات وضعن تحت رحمته  
وجبروته. التقط والدي الصورة من يدي وقال:

- بسم الله، هذا أولهم، هيا تابعي.

تابعت بحثي، وضربات قلبي كأنها زلزال يدق صدري.. وحر أنفاسي  
كأنها ريح من ريح جهنم حارة مشتعلة تلفح وجهي!

جلسنا حتى الساعة الواحدة صباحاً، نبث عن تلك الوجوه المشؤمة،  
وعندما وجدت الصور جميعهن، أمرني والدي أن أذهب للنوم.

ولكن أي نوم يأتيني، وصراخ الماضي يبعثني وينيني؟ وكيف يقرّ  
جفني، وعيني لا ترى إلا ناراً تحرقني؟ بأي حال يغفو لي جفن، وأنا  
غارقة في فضاء الانتقام؟ كنجمٍ يستعد ليتحول إلى ثقب أسود ليلتهم كل  
من حوله، لينتقم من أولئك الذين حرموه من كل شيء في هذه الحياة،

حين جعلوا منه شخصاً تائهاً وحيداً كئيباً مريضاً، شخصٌ لا يريد سوى أن ينتقم!

استيقظ والدي مبكراً وذهب كما أخبرتني والدتي إلى أهل أولئك الأربعة ليخبرهم بجريمة أولادهم، لكنني عندما علمت ذلك ضحكت بطريقة هستيرية جنونية! ثم التفت نحوها وقلت لها: "لم أكن أعلم أن والدي ساذجٌ إلى هذا الحد، حتى يُلقي بنفسه في وكر الذئاب، ويريد أن يأخذ منهم حقه الذي نهشته أنيابهم. أريد أن يقاضي حيوانات لا تعرف معنى الرحمة؟!" غضبت والدتي لكلامي وقالت: "عوضاً عن تشاؤمك هذا، ادعي له بالخير، واسألي الله أن يحفظه من أولئك البشر..."

أجبتُ عليها بصمت مجروح، ونفسي تتمم: "أيّ بشرياً والدتي أيّ بشر؟ بكى الحجر عندما قيل له يا حجر، ظنوا لأنه قسى، قال بل دموعي حمدٌ لربي، لأنني لست بشر!"

تأخر والدي وبدت والدتي أكثر قلقاً، وأكثر خوفاً، وأكثر حزناً، لا سيما حينما ترى وجهي المتجهم الشارد في مكانٍ سحيق، المكان الذي لا يسكنه سوى أشباح سكنوا أجساداً ظلمت وذلت!

- حاولي الاتصال بوالدكِ مرة أخرى.
- لقد حاولت، هاتفه مغلق!
- أين ذهب هذا الرجل؟ لماذا لا يتصل ليطمئننا عليه؟

عاد أخي بخطى مثقلة حزينة، ووجهه شاحب، وكأنه قد عاد لتوه من صحراء قاحلة موحشة، لتستقبله والدتي بآلاف الأسئلة التي محورها واحد: "أين والدك؟".

ظل أخي صامتاً لفترة، ثم التفت إلينا وكأنه قد أحس بوجوده في المنزل وقال وعينه تدمعان: "الأندال سجنوا والدي". صاحت والدتي بأعلى صوتها "ماذا؟ لماذا؟ ماذا صنع ليسجنوه؟!"

- قالو أنه عميل لتنظيم القاعدة!!  
- والدك لا يستطيع أن يؤذي نملة، فكيف يتعامل مع هؤلاء؟ بل إنه لا يفكر مجرد تفكير بالتعامل معهم!!

هو كذلك يا والدتي، ألم أخبرك بأن أولئك أناس يفتقرون إلى الإنسانية والرحمة! فلا تسألي لماذا؟، لأن سؤالك، لا محل له، ولا إجابة لديهم.

كم أحسست وقتها بالذنب، فقد كنت أنا السبب لكل ما يحدث لوالدي من مصائب، وسبب لكل ذاك الحزن الغامر لأهلي، فقط أنا وحظي السبب. التفت إليهم بعين المذنب بلا ذنب وقلت:

- من الضروري إخراجه من هناك بأسرع وقت، لا نضمن ما سيحدث يوم غدٍ!!

أجاب أخي:

- أكيد، لكن كيف سنخرجه؟

آه أيها الموت! لم لا تأخذ أرواح البشر المجرمة؟ لم فقط لا يتعذب سوى المسكين؟ ولا يتألم سوى الطيب؟ ولا يحزن سوى الذي يحب السعادة للآخرين؟ "استغفرت الله وقرأت في نفسي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ثم انتفضت من مكاني وقلت:

- سبب ما صنعوه واضح، والغرض منه أيضاً. أحد آباء هؤلاء السفلة بالتأكيد قام برشي أحد الضباط الفاسدين، والذي بدوره اعتقل والذي لأسباب واهية. وحتى نتكّن من إخراجهم علينا أن نطلب من أهل الحارة أن يجتمعوا ويشهدوا أن والذي بريء من التهمة التي ألصقت به. فهو رجل عصامي، لا دخل له بالسياسة والحرب.

- وهل برأيك سيتركوه. (قال أخي)

- ادفع تأخذ يا أخي! تعامل مع ذاك الضابط بهذا المنطق. أولئك لصوص سرقوا البلاد، واضطهدوا العباد، ولذا نحتاج لنقود تشبع جشعهم! أيضاً لا تعتقد أن والذي سيخرج من بين أيديهم لأنه بريء فقط، هم تجار أرواح، ادفع لتنجو بروحك، ادفع ليقتلوا من تشاء عوضاً عنك، ثم بعد ذلك يقولون: "عميل، خائن، فاسد، ولذلك قتلناه!!".

- الأعمار بيد الله يا ابنتي. (قالت أمي ودموعها لا تثقف عن السقوط بغزارة)

- وسبب الموت أيادي العابثين يا أماه!! (قلت)

## (11)

### أغبياء!

لكل إنسان فلسفته في هذه الحياة.. فترى الرقص فلسفة الحياة لدى الراقصين، والموسيقى لدى الموسيقيين، والغناء لدى المطربين، والرسم لدى الرسّامين، والكتابة لدى الكتّاب، والقراءة لدى القراء.

الحياة عبارة عن مزيج من الفنون والألوان، وعندما تختفي لذة هذه الأشياء من حياة الإنسان، يجد نفسه في دوامة من الشعور بالملل والكآبة، ويفقد لذة الذوق والتذوق، يصبح اللون الأسود شعاراً له، فتراه في كافة أشياءه ومستلزماته (ثيابه، نظارته، أقلامه، وربما سيارته!) ومع كل ذلك السواد الذي يحيط به إلا أن قلبه أبيض! أتعلم لماذا؟ ببساطة لأن نقاء وصفاء قلبه يجعله يرى كل ما حوله أسود. فقط يكون قلبه عكس الأشياء الخارجية. لأن قلبه ملكه، هو سيده ويربّيه كيف يشاء، لكن الأشياء الخارجية يصعب عليه التحكم بها، ويصعب تلوينها وصبغها كما يحلو له... ولهذا هناك مثل يقول: "كل على ذوقك، والبس على ذوق الآخرين!".

كنتُ سوري الجنسية وهي يمنية، ثلاثيني العمر وهي عشرينية، باردٌ كالثلج وهي حارة كالنار، أؤمن بالفلسفة البسيطة، وتؤمن

بالفلسفة المعقدة. بسيط جداً، فلا أحب المظاهر ولا التظاهر، وكانت تهتم بأدق التفاصيل وما وراء التفاصيل وتوقعات عكس التفاصيل. ومع ذلك كنت أراها تشبهني في أشياء لا أستطيع وصفها، أشياء تكمن في الكلام الذي لا ينطق ولا يوجد حروف لوصفه.

كانت هي كما يقال: "الحب الأول" هي التي استحوذت على قلبي وتربعت على عرشه. كانت أول فتاة أراها بعينٍ أخرى ثالثة، عينٌ لم تظهر إلا لها، ولن تظهر إلا لها، بل محالٌ أن تظهر لغيرها.

كان جميع من حولي يصفونها بـ الكائن المتوحش؛ لأنه لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها. فقد كانت دكتاتورية مع الجميع، إلا مع المرضى. فتراها تعاملهم - لن أقول بأسلوب مختلف فحسب - بل وكأنها تكون مختلفة تماماً عن كانت.

- ربا!.. ماذا تعرفين عن الاستسلام لحرية الأقدار؟
- أحياناً تشعرني بأنك صحفيٌ ولست دكتوراً!!
- وإن يكن، نحن هنا نخدم البشرية بالطب، وأولئك يخدمونها بالفكر!
- حسناً إذن، الاستسلام للأقدار أو من به في حالة واحدة.
- وما هي هذه الحالة؟
- إن ضاقت السبُل، وأصبحت عاجزةً بعد أن صنعتُ ما يجب عليّ صنعه، وقتها أعلم أنه "لا مهرب منه إلا إليه" فأخذ

بأسباب كل شيء، لست عبداً متواكلاً، إنما عبداً متوكلاً؛  
هكذا تعلمت من ديني الحنيف.

عنيفة هي - ليس بالضرب بل بالقول - فهي شوكة في حلق الذي  
يكرهونها، وسكين في قلب أولئك الذين يحبونها. لا ترحم أحداً ولا  
تشفق عليه.

رأيتها ذات مرة تتشاجر مع زميلنا لؤي؛ الذي انتقل لتوّه لقسمنا، وقد  
احتدم الصراع بينهما، وقد بدت تحك أسنانها بقوة - عاداتها التي  
تستخدمها لكبح لجام غضبها خشية أن ينفجر - اتجهت نحوهما  
وقلت: "خيراً ماذا هناك" استدارت نحوي ثم ردت بصوت تملؤه  
السخرية: "أخبر هذا المغفل من تكون المرأة" أدت له رأسي ثم  
غمزت له بعيني وقلت: "هياي أيها الرجل، ويحك! ما تقول في المرأة!"  
غضبت وقتها بشدة وصاحت: "أغبياء" ضحكنا حتى وقعنا أرضاً  
ونحن نقول: "ما بالك يا فتاة!"

كنت أدرك تماماً أن نقطة ضعفها هي التصرف بغباء، فهي تكره  
أولئك الناس وتمقتهم بشدة؛ أولئك الذين يظنون أنهم عالمون وهم  
مجرد أغبياء جهلة. وأولئك الذين يتخذون من شعار "تكفير،  
تكبير، تفجير" قانوناً في نشر الإسلام أو الأمر بالمعروف والنهي عن  
المنكر! كانت عقليتها في فهم الأشياء في الدنيا تدفعها للاعتقاد أن  
الإسلام ليس فقط تلك العبادات والشعائر والطقوس التي يؤديها  
المسلمون كل يوم، بل أن الإسلام أيضاً أخلاق وتعامل وخشية

ورهبية، وتظل دائماً تردد مقولة ابن القيم رحمه الله: "الدين هو الخلق، فمن زاد عليك بالخلق، فقد زاد عليك بالدين" فمن ظن أنه سيدخل الجنة بعمله الصالح فهو متكبر مغرور، حاله كحال فرعون عندما ظن أن قوته ستمنعه من الله؛ لأن الجنة لن يدخلها أحد إلا برحمة الله وما العمل والعبادة إلا رجاءً لرحمة الله ليس إلا، ورحمة الله وسعت كل شيء سبحانه هو الرحمن الرحيم.



(12)

## أعراضٌ غريبةٌ عجيبة

عزيزتي الأنسة "سين": عندما أبحر في فضاء عباراتك، أتذكر كل تلك الدموع التي ذرفت، وتلك الأرواح التي زهقت، وتلك النفوس التي تضرعت، وشكت، وبكت طويلاً حتى لامست عنان السماء..

لكنني وفي كل صفحة أستفيد منك وأتعلم، أجل. بفضلك عرفتُ أنّ هنالك عالمٌ يعيش على مبدأ التهميش، بعيد كل البعد عما يسمى "سعادة" عالمٌ يعيش خلف الكواليس دوماً، سكانه يسكون الظلام ولا يرون نوراً كي يشقوا طريقهم أمام الجموع من الناس. فقط يتنفسون همساً، ويضحكون سراً، ولا يكون إلا في الظلام، حتى لا يشهد النور أن هنالك من تجرأ من أولئك المهمشين وبكى فيه علانية.

والآن آنستي **لأكمل لك**، ولنرى ما بجعبة ماضيك من أسرار ومن أحزان:

عاد والدي بعد الكثير من السبّ والشتم والضرب، شهد لصالحه أهل الحارة ووقفوا بجانبه، وتم دفع غرامة مقدارها مليونان! لم نكن نملك هذا المبلغ بالطبع، ولذا بعنا سيارة والدي ودفعنا الغرامة. أُرهِق والدي كثيراً،

وفقد آخر أملٍ له لينقذني من هذا الوحل الذي انغمست فيه، وغصتُ  
إلى أعماقه. حتى صرت في ظلمات البحر المشئوم، ولا أدري كيف  
قذفت بنفسي في أركانه.

- الخونة الأندال لم يبقوا شيئاً من كرامتنا. (قال والدي)
- المهم أنك خرجت سالماً، وما عداه لا يهم. (قالت أمي مواسية)
- الحمد لله على كل حال. (رد والدي)

ظلّ والدي مستيقظاً طيلة تلك الليلة، وأحسست بتلك الغصة التي  
سكنت في حلقه، وهذا ما يسمى تماماً "العجز". عندما ينهال عليك مجموعة  
من الأثرياء بأسواطهم جلدًا وتعذيباً، عندما تركلك أقدامهم وتنهال عليك  
الشتائم المخزية وتسال نفسك لماذا؟.. ويأتيك ردُّ إلهي "لأنصرنك ولو بعد  
حين" فتصمت وتسلم أمرك لله وحده... في اليوم التالي لتلك الحادثة  
اتصل أحدهم يطلب والدي، وكأنما الحياة تخبر والدي "طالما فيك عرق  
ينبض فلن أرحمك".. احمرّ وجه والدي عند سماع صوته ونهض من  
مكانه وكأنه أسد يريد أن ينقض على فريسته.

- أنت! ما الذي تريده؟
- أحببت أن أخبرك أن بالأمس ابنتك، واليوم سيارتك، وغداً لا  
يعلم إلا الله ما الذي سيحدث، لذا انتبه واحذر أن نتعالى على  
اسيادك يا .....

- الله لا ينسَ المظلوم ولو طال الزمن، سيأتي يومك أنت وزمرتك.
- المهم، انتبه على رأسك ورأس ابنتك، واترك المستقبل لأصحابه!

ثم أغلق الخط معلناً خسارة المظلوم أمام الظالم. رمى والدي سماعة الهاتف بقوة، وخرج من البيت غاضباً كارهاً للحياة، وما فيها!!

مرت أيام نثلوها أيام، والصمت يخيم على منزلنا، يأتي والدي وأخي ليلاً، يتناول الجميع عشاءهم، ثم يمضي كل فرد إلى غرفة نومه. ثم يحل الصباح ويمضي كل منا إلى عمله، دون أن ينبس أحد ببنت شفة. اعتدنا هذا الروتين، وأصبح جزءاً من حياتنا الجديدة، تلك الحياة التي يعاني فيها الأب الخيبة ومن شعوره بالعجز عن حماية أولاده، فالأول مضى في طرفة عين، والثانية ضاع مستقبلها وأصبحت مجرد شبح ليس إلا، والثالث إما به مرض نفسي بسبب خوفه من قدوم دوره في المصائب، أو كارهاً للحياة ومنتظراً للموت.

ظهرت عليّ أعراض غريبة عجيبة، وكانت والدتي حينها ترمقني بنظرة يملؤها الريبة، والقلق، والفرع، والخوف، ولست أدري هل خوفها ذاك كان له صلة بالماضي أم بالحاضر أم مما قد يأتي في المستقبل! بدأت أحسّ باهتمامها الشديد بي، ولن أقول الشديد فقط بل المفرط، وكلما أمسكت يدها أحسستُ بنبض قلبها الخافق بشدة، وارتعاشة تلك الأيدي الحانية عليّ. في إحدى الليالي من زمن ما بعد الحادثة، شعرت بأرقٍ شديد، كان هناك قلقٌ يسكنني ويؤرقني، ولم أكن أعرف سببه، وما مصدره؟ ومن أين يأتي؟! نهضت من فراشي، ذهبت إلى المطبخ لأشرب كأس ماء، مع أنني لم أشعر بالعطش ولكن كان لي رغبة عارمة في الخروج من غرفتي. "الثانية فجراً.. ترى متى أنام" قلتها بزفرة وتمليل. وأثناء عودتي إلى غرفتي رأيت نوراً في غرفة والدي، استغربت كثيراً! ما الذي يجعلهم

مستيقظين في تلك الساعة؟ تجاهلت الأمر وعدت أدراجي نحو غرفتي، ومن بين همهماتهم الغير مفهومة سمعت صرخة والدي يقول "حامل! كيف!؟"

استوقفتني هذه العبارة، وظلّ صداها يتردد على مسمعي، وكأني أسمعها لأول مرة! و تساءلتُ: "حامل"! من تكون هذه؟ إذا كانت والدتي كذلك، هل يُعقل أن يفزع والدي كل هذا الفزع، بسبب أنه سيأتيه طفلٌ صغير بعد سنين طويلة؟

مشيتُ على رؤوس أصابعي، واقتربتُ أَسْتَرِقُ السمع، لأن الفضول في ذلك الوقت كاد يقتلني. كانت الصدمة عند باب الغرفة، حيث سألت أدمعي كشلال يتدفق بقوة، وتجدتُ كل خلية في جسدي، وأصبحتُ كجذعٍ خاوٍ من كل شيء في هذه الحياة.

- لا أعلم!
- يجب أن يموت، ماذا سيقول الناس؟ بل ماذا سنقول لهم، هل سنقول اختطفها أبناء الأغنياء ثم قذفوا بها كخذاء مهترٍ بعد أن....!! يا الله.. أيّ مصيبة هذه التي حلت علينا؟!
- ولماذا تخشى قول الناس، وأنت تعرف ابنتك وثق بها.
- يا امرأة ألا تفهمين!! نحن في زمن الألسن فقط. الناس لا تتبع إلا الإشاعات، وغداً الجميع سيقول: "ابنة الحاج إمام الجامع الفلاني حامل! وهي غير متزوجة!"
- اللهم انتقم ممن كان سبباً في كل هذا.

## (13)

### أخي!

إن للحب مغناطيس يجذب الأشياء نحو بعضها ، فلكل إنسان في هذا الكون مغناطيس حب ، ولكل إنسان جاذبية وشحنة خاصة به. هناك بعض الأشخاص يهتمون كثيراً بمن سيشاطرونهم حياتهم ، فمثلاً قد يختار الشخص عروسه عن بعد ، فقط يسأل عنها ، وعن هواياتها ، وماذا تعمل؟ وكيف هي أخلاقها ثم يتقدم لخطبتها ، وأهل تلك الفتاة يقومون بدور التحقيق في شخصية هذا الشاب على أكمل وجه ، ثم إن كُتب لهم النصيب تم الأمر على خير ، وإن لم يكتب يتفرق كلاً في جهته لتجري عملية بحث جديدة. هؤلاء الأشخاص بعيدون كل البعد عما يسمى ب 'تفاهم ما قبل الزواج' لأن وجهتهم في الحياة ومعتقداتهم تنبذ فكرة أن تعرفه ويعرفها ، أن تفهمه من قبل ويفهمها ، أن ترى عيوبه من قبل أن تقع المصيبة على رأسها ، أو أن يرى عيوبها. وذلك لأنهم لا يعلمون أن "باطن أي كَفّ ليس كظاھرھا" هناك أشياء يجب أن تكون عن تراضٍ منهم ، عن شعور بالرضا التام عن الشخص الآخر ، فمثلاً إذا كان الشخص يبحث عن شخصٍ مطابق له ، ألن يحدث هناك تنافر فيما بعد الزواج؟! أوليس إذا تلاقى الشبيهان تنافرا؟!

لذة الحياة ليست في أن تحصل على نسخة طبق الأصل منك، شخص وكأنه ظلك أو كأنه روبوت آلي يتحرك بتحريكك. بل لذة الحياة تطيب فعلاً عندما يتلاقى قلبان في جوف كُلّ منهما صدق، ومشاعر، وإخلاص، ووفاء، وحب للآخر، بغض النظر هل يشبهني في لون عينيه أو في أفكاره. له حياة مستقلة ولي حياة مستقلة تماماً، ولكننا نتقاسم ذلك العمر سوية ومعاً.

أيضاً أود أن أقول بأن كثيراً من القلوب أُحرقت وسُحقت بسبب التمييز العنصري، أو التفريق المذهبي، أو الديني، وأيضاً الطبقي "التفريق بين الأسر الغنية والفقيرة".

فتجد أن هذه المشكلة ليست في عالمنا العربي فقط، بل في سائر العالم الأرضي، وربما قد يكون في المستقبل لدى العالم الكوني! فالبشر الذين قد يسكنون كوكب المريخ، ستكون لهم امتيازات خاصة بهم وليست موجودة عند بشر كوكب الأرض!!

كنت أقرأ لها هذا النصّ - كما أعتدتُ أن أقرأ لها كل يوم- كانت غايتي من ذلك أن أشغل تفكيرها، فيبقى سابحاً في الأفق، كما لو أنها في عالم آخر تشاهد كل حوادثه ووقائعه، ثمّ أستغل الفرصة وأسترق النظر إلى وجهها و أتأمل تفاصيله الفاتنة دون أن أخاف إحراجاً منها ومن أسئلتها!

- ما رأيك بهذا دكتورة ربا؟

- جميل، ولكن لمَ تقرأ لي كل يوم مقالات كهذه؟ أقصد ما

علاقتي أنا؟!

- شعرت بأنك جاهلة لا تفقهين شيئاً فقررت تثقيفك!
- من حماقة أن تظن أن كل صامت لا يقرأ ولا يكتب!
- الصمت حكمة وحشمة إن كنت لا تعلم!
- أها...
- نعم هو كذلك، ثم فإن العالم يسير نحو برك الدماء، وعلى وشك الدمار الكلي، وأنت تفكر بالحب، ومشاكل الحب!!
- نعم ولم لا أفكر به؟! ثم لا تنسي أن أول جريمة في التاريخ كانت بسبب الحب!
- كيف؟
- أخوان أحبا فتاة، وأراد كل منهما أن يتزوجها، فاختار الله الصالح ليتزوجها، فقتله أخوه!!
- قابيل وهابيل؟!
- نعم.. نعم

هي هكذا دائماً؛ عندما تفكر بشيء يطير فكرها في الفضاء، تنسى كل ما حولها. تعيش فقط في عالم ذكرياتها بمفردها، تتوقع على نفسها وعلى أفكارها ولا تسمح لأحد بكسر قوقعتها. لست أدري ماذا يسكن في تلك الذاكرة؟ ولا كيف يمكن التسلل إلى داخلها، لكنني كنت أؤمن تماماً أن لكل شيء نقطة ضعف، لا يوجد شخص مكتمل، فالكمال لله وحده.

عملنا سوياً لمدة أربع سنوات، عندما رأيتها أول مرة كنت أراها فتاة متعجرفة وجاهلة ومعقدة، فتاة تجهل كل ما وراء عينيها، فهي لا

تنظر إلى ما حولها بل إلى أمام ناظرها فحسب، ديكتاتورية في أسلوبها، والشئ الوحيد الذي أراها تتفلسف به كثيراً هو الحزن. ولهذا اعتقدت تماماً أن لها مذهب خاص، عالم لا يسكنه إلا أشخاص قلّة، ولا تسمح لأحد بالإقتراب منه، تماماً كما كان عليه يهود الزمن السالف! دين خاص بهم لا يسمح بدخوله أحد ولا يرغبون بأن يدخله أحد من غير أبناء جنسهم!

لكن الحال في هذا الزمن قد تغير.. طراً تغير كبير على كل ما حولنا من علاقات. فنرى أغلب الأحيان أن الناس يثقون بأصدقائهم أكثر من ثقتهم بأحبائهم. على عكس ما كان في الزمن السالف. فكل يوم تسير الأرض في مدارها حول الشمس، الدورة نفس الدورة منذ أن وجدت، ولكن هناك اختلافات شتى، ليس في المظهر، إنما في الجوهر.

لذلك لا تصدق أي إنسان يقول لك: "أنا شخص ثابت المبادئ والأفكار" لأن هذا هراء! فكل شيء يتغير بتغير ما حوله، أوليس التغير سنة من سنن الكون؟! آمن بذلك، وتكيف معه، فالذين سكنوا في الماضي قد رحلوا وإن لم يكونوا قد رحلوا فسيرحلون، هكذا هو عالم الإنسان.

ولهذا رحل هو عمن يحبه، رحل ولم يترك لهم ولي سوى ذكرياته، لا جسده، لا رائحته، ولا حتى ابتسامته. فقط ذكريات وحوادث عشناها سوياً. كان يقول لي أنني عندما أكبر سيسكن الحب قلبي، وسأحاول بكل قوتي أن أمسكه بكلتا يدي كي لا يفر



مني، ولكنه سيفرّ كعجينة تتسلل من بين الأصابع بسبب قوة الضغط عليها. كان له ماضٍ مؤلم جداً ولهذا مات وفيّاً لماضيهِ ولم يخذله. كان أخي غازي شاباً سعودياً مجتهداً، ملامح الذكاء تفيض من عينيه، وابتسامته العطرة الصادقة تختصر لك طهارة قلبه، ووسامته. ولكن كل شيء خذله هناك، فرحل وترك كل شيء خلفه ولم يعد، ليس هرباً من ريحة وطن أو ممن باع من يحبه لشخص لم يستحقه، وإنما كان هروبه رأفةً بنفسه، بحاله، بعقله الذي كاد يفقده إذا لم يكن قد فقده حقاً!

أحبها كثيراً، وأحبته كذلك، وجاء ابن عما وتزوجها "كم تضحكني هذه العبارة" ولستُ أعلم هل ضحكي هذا من قهر! أم من ألم، أم هو بداية الجنون!

سافر إلى بريطانيا ومكث هناك، أنهى دراسته وعمل بأحدى الشركات... لم أكن أعلم الكثير عن ماضيه، والوقت الذي كان يحدثني فيه عن تاريخه فقط عندما ينظر إلى موقد النار في ليلة باردة وعاصفة، ذلك الوقت الوحيد الذي كان يثرثر، ثم يسكت، ويمسح على وجهه، ثم ينصرف بحجة أنه ذاهب إلى النوم.

ربما كان يشعر في حاضره ببرودة الغربة! فعندما يحس بالبرد وبالثلج المتراكم فوق أشواقه، ويشتاق لدفء الماضي، وعندما يحس بدفء النار وحتى إن كانت حارقة فهي دافئة في أيام البرد. وكذلك هي الذكريات دافئة علينا تارة وباردة تارة أخرى!

لم يذكره حنين الوطن بالعودة له أبداً وكلما سألته: "أما تحن لوطنك، لأهلك، لأحبتيك؟" يبتسم ابتسامة تملؤها الخيبة ثم يجيب: "هناك شيء في قلب الإنسان إذا كُسر ، فقد كُسر كل شيء حتى عمره".

ومهما سألته بعدها من أسئلة لا يجيب، فقط يتجاهلني أو يتحجج بأنه مشغول، ثم ينغمس في صمته من جديد.

أتساءل، لم الأشخاص الأكثر حزناً في الماضي هم الأكثر صمتاً في الحاضر! أتراهم كلما نطقوا حرفاً عاتبهم حزنهم المدفون!؟ أم أنهم كرهوا الكلام واشتروا الصمت عوضاً عنه!؟

كنتُ شغوفاً جداً بكتاباته، ومازال شغفي لها ينمو في قلبي يوماً بعد آخر، وخاصة بعد أن رحل. فقد أصبحت لي رفيقاً جديداً؛ يجسد شخصية عظيمة استحوذت عليّ.. ولكم أعجبت بها! ولكم أحببتها!

- دكتور، هل تعرف غازي حسين؟

- نعم هو أخي، لِمَ تسألين؟

ضحكتُ "ربا" كثيراً ذلك اليوم لدرجة أن من هول الموقف المخرج احمر وجهي وامتلات كل خلية منه بالدم وكنت كما يقولون كـ "الأطرش في الزفة".

- عفواً! ما سبب كل هذا الضحك؟ هل قلت شيئاً مضحكاً؟

(سألتها والغرابة تملؤني)

- نعم.. كيف وصل الدكتور والكاتب غازي حسين ليكون أخاً لك!! (أجابت بحروف متقطعة ممزوجة بالضحك)
- أعتذر، ربما اختلط عليّ الاسمان فلم أُميّز بينهما!
- لا عليك، حسناً هل تعرفه؟
- لا.. لا أعرفه. من يكون؟
- عجيب! أولست مثقفاً وتحب القراءة؟ هذا سياسي فلسطيني يعمل في الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولديه العديد من المؤلفات.
- حسناً، وثمّ؟
- الغريب في الأمر أن هناك من أهداني - ولا أعلم من هو - بعض مؤلفات هذا الكاتب!
- أها... حسناً، ربما يظنك جاسوسة صهيونية! ويريد أن يعيدك إلى رشدك.
- ساذج! ولمَ قد يظن ذلك؟
- لم أجب على سؤالها، لأنني كنت شارداً أردت اسم غازي... نهضت من الكرسي ببطء ثم قلت بزفرة: "ذهب إلى عملي".
- انتظر..
- أملت برأسي وقلت:
- خيراً..
- لم أسمع بأخيك غازي هذا! ولكن دقيقة أكثر في استفساري، لم أسمعك تذكر أسرتك أصلاً!

تحركت شفطاي بفتور كبير تريد أن تبتم، لكن عبثاً، ثم أجبت:  
"قصة طويلة... ربما أخبرك بها لاحقاً".

- كقصة تلك الفتاة التي أهدتك روايتها !!

- ربما...

- هل أنهيتها؟

- ليس بعد..

- حسناً.. يمكنك أن تذهب الآن.

تبسمت وهمست: "الحمد لله انتهى التحقيق" رفعت رأسها من بين  
تلك الأوراق المصفوفة على طاولتها ثم قالت بصوت استغرابي: "  
عفواً!! هل قلت شيئاً"

- لا لم أقل شيئاً!

## (14)

### العار!

يذكر أن الإنسان يصدق ما تسمعه أذناه أكثر مما تراه عيناه. الأمر غريب أليس كذلك؟! نعم. فإن عينك لك، و أذنك لغيرك، ولهذا لا تصدق كل ما يقال، فمن المحال أن تكذب عينك التي ترى الحقيقة، ويصدق الآخرون الذين إما أنهم سمعوا بها، أو لم يسمعوا...

ولهذا آنسة "سين" أرى أنك قد وُضعتُ بموقفٍ صعب جداً. موقفٌ ينمو على الألسن، ويعلو على الأسماع، ويكبر فيه الشك، وتنهار فيه الإنسانية. موقف يبيع فيه الناس ضمائرهم شهوة لسماع الكذب والافتراء.

آه وألف آه، كيف يصبح الإنسان متجرداً من العقل الذي وضع في رأسه تكريماً له؟ كيف يصبح كحيوانٍ يُقاد، ويتبع بعض الإشاعات السخيفة والديئة؟ ... ثم ماذا!

### وماذا حصل بعد ذلك؟

انشقت السماء وتساقطت كل كواكبها ونجومها على ظهري. ماذا بربكم أصنع؟ وما هي حيلتي؟ تحطم كل شيء أمامي، فقدت دراستي بلا

ذنب، حرمت من أحلامي بلا ذنب، دنست كرامتي وعفتي بلا ذنب،  
سجنت بين أربعة حيطان وثمان زوايا بلا ذنب، فقدت كل شيء سعيد  
بلا ذنب. والآن ماذا؟!

كنت أريد أن يسقط هذا الجنين ولو بالقوة لكن والدي نهاني عن ذلك؛  
ليس رأفةً به وإنما خوفاً من الفضيحة، فبعد سقوطه سيسأل الجميع: "من  
أين أتى!" فليس من السهل أبداً أن تحدث عملية إجهاضٍ في بلادي،  
حتى وإن وجدت طبيباً ليفعلها، فسوف تضطر إلى أن تبيع كل ما تملك،  
لأن الثمن الذي سيطلبه منك سيكون ككَنْزٍ بالنسبة له، ولذا لن يفرط في  
انتهاز تلك الفرصة. وبعد أن تتم العملية بنجاح سترى أنك قد فضحت  
تماماً وفي أسوء وأبشع صورة. بدا والدي ينخل شيئاً فشيئاً وبدأ رأسه  
يشتعل شيباً. أصبح شارد الذهن طيلة الوقت. وكيف لا وكل الحلول قد  
أقفلت أبوابها في وجهه.

- الوقت يمضي من أيدينا وأنا لا أعلم ماذا أصنع؟ (قال والدي)
- اهدأ ولا تقلق، لا بد من حل، اصبر وثق بربك، فهو يعلم أننا  
المظلومون، ولن يتركنا. (قالت والدتي)
- ونعم بالله.. هو حسبنا ونعم الوكيل.

كانت نساء حارتنا يأتينَ لزيارتنا، ووالدتي تتحجج بألف حجةٍ وألف  
مرض... لدرجة أن الأمر وصل إلى أنها أخبرتهنَّ أنه قد تلبس بي  
شيطان، ولهذا أظل حبيسة غرفتي لا أخرج أبداً، فقط كي تصرفهنَّ  
عني...

وكلما أتت إحداهن إلى بيتنا، تغلق والدتي الباب جيداً، حتى لا تدخل أي امرأة ولو كان ذلك عن خطأ، ولم يُستثنى من ذلك أحد، حتى صديقتي! فالشيطان الذي يسكنني يكره أن يراني أحدث أي أحد، فهو يغار عليّ من البشر كثيراً!!!

كم كنت أضحك بصوت عالٍ وأنا أسمع والدتي تحتلق تلك الأكاذيب والقصص الخرافية! كنت أضحك لحال هدمها الزمن، وهم يظنون أن ضحكي هو مع الشيطان!.. وليته كان كذلك فحسب، فشياطين البشر أخبث من شياطين الجن أحياناً! فالأول يرتدي ألف قناع وقناع ليخدعك، والثاني صريح جداً "أنا كافر وأريدك أن تكفر مثلي".

كنت أضرب بطني بقوة وعنف، فقط ما كنت أريد لهذا الكائن أن يتنفس، بل لا أريده أن يولد في هذا العالم الميت، فالموت أصبح أرحم بكثير من هذه الحياة ومن هكذا معاناة.. والمشكلة الحقيقية أن البشر في هذا الزمن نوعان: نوع متبذخ غني مترف حد الملل، بحيث فقد كل رغبته في الحياة، فقد أخذ منها ما أشبع حاجته، ولم تعد له رغبة أخرى، فأصبح كالحيوان الذي لم يعد يلفت نظره شيء!

والنوع الآخر: أشخاص تعساء بؤساء حد الملل، اعتادوا على تلقي ضربات معاول الحياة لهم، ولم يعودوا يتأثرون أو يشعرون بجرح أو هم أو ألم، فأصبحوا كالحيوان مستعدّ في أية لحظة يأتي به الجزار ليقطع عنقه، أو يأتي الموت وينتزع روحه!

وما بين النوعين ستجد أنهم أما فقراء يلهثون وراء الحياة ليصيروا أغنياء حتى يدركهم الموت. أو أغنياء يتمنون أن يذوقوا معنى الشقاء يوماً حتى تعود لهم حاسة التذوق من جديد. وهكذا فقط، يمكنك أن ترى صورة الحياة البائسة بأبهى صورة لها وأصدق معنى.

بدا بطني يظهر ويبرز ويمكن ملاحظته بسهولة، عندها لم يرَ والدي حلاً سوى السفر، لم يكن يريد شيء، سوى أن يعيش نظيف السمعة، مطمئن البال.. كان يخشى كثيراً من كلام الناس، فقد كان يؤمن تماماً أن الناس لا يعترفون إلا بشيء واحد فقط "الحسنة تخص والسيئة تعم" سينسون كل شيء صالح وراء ظهورهم، ولن يتذكروا سوى شيء واحد: "الرجل العابد الزاهد، رجل الدين وإمام المصلين، ابنته تسببت له بفضيحة.. يا لها من تربية!".

لن يسألوا كيف؟ أو متى؟ ولا لم؟ فقط إنه العار.. أجل إنه العار.



(15)

## جملۃُ آلتني

عندما كنتُ طفلاً تعلمتُ أن الله في السماء، لكنني حينما كبرت أدركت أننا كنا على ضلاله، لأن الله خالق السموات، والسموات مخلوقة، فكيف للمخلوق أن يحيط بالخالق؟! وأنه سبحانه خالق الزمان والمكان، ولهذا فالله ليس موجود في شيء، بل هو موجود في كل شيء، فأنتُ لشيءٍ أن يحتوي خالق كل شيء! هو قريبٌ منا وأقرب مما نظنّ قال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وهو في كل مكان وكل زمان.

السمو الروحاني الذي يشعر به المرء تجاه ربه هو دليل حبه وقربه. فكلما أحسست بأنه قريب منك، ثقتُ تماماً أنك قريب منه، وكلما شعرت بأنه بعيد عنك، ثقتُ تماماً بأنك بعيد عنه.

ولهذا أثقتُ تماماً أن العدل سيتحقق يوماً ما. سيعود على شكل سحب من الهموم والمشاكل والفشل والتخبط، والضياع. حق كل إنسان ظلمته مكتوب عليك وسيؤخذ منك وحقك ستأخذه من كل إنسان.

ولعلك عزيزتي تعلمين ذلك.. تعلمين أنك إن ظلمتني، فسوف تأخذ العدالة مجراها عليك، ولهذا تحاولين التملّص مني وإبعادي عنك،

لكن لا عليك فحبي لك يقول "افعلي ما شئتِ فقد سامحتك مسبقاً".

أجل. الحب يدفعك لفعل الكثير نحوه.. سوف تبدو برفقته مهموماً وشارداً، ولهذا سيسخر منك الجميع، سيجعلك تبدو خيالياً وانطوائياً، وقد يرافق الإخفاق دربك، وقد تغيب الابتسامة عن وجهك، ومع كل هذا ستسامح، وتغفو للحب ولمن تُحب، ليس حباً في الحب، ولكن الحب يدفعك لفعل ذلك. لذا تعلّم أيها الإنسان أن تحبّ بصدق، قبل أن يحين دور الانتقام عليك.

غابت "ربا" عن عملها لأيام ولم أدرِ ما سبب غيابها، ولم أشأ أن أسأل عن سبب غيابها، لاسيما وقد نهرتني بقولها أنني شخصٌ متطفلٌ على حياتها، ولا تريد مني أن أقرب منها أو أسأل عنها. كان قلبي يعاني الأمرين، مرّ الفراق ومرّ القسوة، ولكن عقلي كان يقول معزياً قلبي: "لا بأس، ليست كل النساء هي، وليست هي كل النساء، والحب يُمنح ولا يُؤخذ" لكنني فعلاً اشتقت لها، ولغضبها، ولكلامها الذي يحرقني إما غيضاً أو سحراً.

"ولهذا تعلّم أن تحبّ بعقل، ولهذا تعلّم أن تحبّ بعقل!"

سألت أخي غازي عن مضمون هذه العبارة، التي كانت منقوشة على لوحة من خشب بخط عثمانيّ أصيل فقال: "ما ترى فيها؟" أجبت: "جملة أعجبتك". ضحك حينها مطولاً ثم ابتسم وقال "لأصح لك... جملةً آلمتني".

- آلمتك!! كيف؟
- صديقي خالد ، هناك فرق بين أن تحبّ بقلب وأن تحب بعقل.
- كيف؟!
- سأضرب لك مثالا لتفهم.. أترى الأم كيف تحب طفلها؟ هو ذاك... الأم تحب بقلبها لا بعقلها ، ولهذا فهي مستعدة للتضحية دوماً بكل شيء فقط لتسعد طفلها سواء طابق عقلها ذلك ، أم لم يطابق.
- وحبّ العقل؟
- رأيت شخصاً أحب آخر ، فلما أحسّ أنّ مصلحته ليست معه تركه و نساه؟ هو ذلك ، أن تحب ولكن بعقل ، تحسب للأمر ألف حساب قبل أن تقوم بعمل ما ، تتمهل! تتمهل! ثم تنقضّ ، ولا تتعجل ، فدائماً الأشخاص كثيرون التآني والصبر ، كثيرون السعادة والنجاح.
- كنت أدرك تماماً مقدار الخيبة التي كان عليها أخي ، وكيف أصبح يكره الحياة وأمسى يمقتها... هو إنسان نعم! وكل إنسان يصح مساره ، ويختار طريقاً آخر إذا أخفق في طريقه الأول ، لكنّ أخي كما يقول أن شيئاً ما كُسر في أعماقه ، ويصعبُ على أي شيء أن يعالج كسره.
- ولكن خيبة أمله تكمن في أناسٍ ظلموه وسلبوه من يحب ، أما أنا ، فخيبة أُملي أنني ميت وأنا على قيد الحياة... قريب منها لدرجة أنني أراها أمام ناظري ، ولكنها بعيدة عني لدرجة أنني لا أستطيع أن

أخاطبها أو أن أتحدث معها... ولهذا ثق تماماً أنه ليس كل شيء بيني على المشاعر، فهناك أشياء فوضوية بنيت على الفراغ من كل شيء، كذلك هي ابتسامتنا هذه الأيام، فارغة لا تحمل أي معنى لنبتسم.

نحن أشخاص ننتظر الموت ليطلق علينا رصاصته الأخيرة. رصاصه الرحمة لنرحل إلى عالم آخر، ولعلنا نعيش في ذاك العالم على عكس ما عشناه هاهنا! فما هنا سوى حياة لا معنى لها!

قال لي أحدهم: "أتمنى لو أنني كنت أعمى" نظرت إليه بتعجب واستغرب وقلت له: "لماذا؟"

أجابني وقد بدأ عليه الحزن: "لأن الأعمى لا يرى كل هذا الشقاء والبؤس. لا يرى الألم والحزن، لا يرى الحرب والدم، والقتل والقتلى. الأعمى فقط من يرى من يحب طيلة الوقت، فهو يحسبهم قربه دائماً.. الأعمى فقط من يرى كل شيء جميل، ويحسبه كذلك ولو عاد إليه بصره، لتمنى أن يعود أعمى! الأعمى صفحة بيضاء لم يلوثها كره، ولا حقد ولا انتقام، ولا طمع ولا جشع، فقط هو وطن جميل ويظن كل شيء حوله جميلاً مثله. قلبه صاف، وروحه نقية، وضميره حيّ يقظ. فقط تلك حياة الأعمى".

تبسمتُ منتشياً من قوله وقلت: "وماذا عساه يكون غير ذلك؟ صدقت".

التفتَ وأجابني: "هي الحياة وكيفما كانت فلتكن، وماذا عسانا  
نفعل! فقط نسير في قافلة العمر ولنرى إلى أين يأخذنا قائدها  
"القدر"!

## (16)

### ما ذنبي أنا؟

عزيزتي الأنسة "سين" أنتِ زهرة ياسمين جفا عليها الدهر.. زهرةٌ  
ثُركت وسط صحراء جرداء، قاحلة حارة. تموتين عطشاً تارة،  
وتموتين بسبب حرّ الألسن وسوء الظن تارة أخرى. لك ماضٍ مخيفٌ  
مؤلمٌ محزن. ولكن تُرى أين حاضرك؟ وما هو مستقبلك؟ أم تراكِ  
تنزعجين عندما تسألين عن ماهية أيام تواليت، وأيام تتسابق نحونا؟!

### الأكمل لك:

كشمعةٍ نحن نحترق. ستسأل: من أنتم؟ وسأجيبك: نحن مكّموا الأفواه،  
محطّموا الأحلام، الساكنون بين آلام وآلام، ضوءنا الوحيد هو الظلام.  
نحن عالمٌ منسيّ متروكٌ مسلوبُ الإرادة، عالمٌ من الأشخاص الذين يتحملون  
ذنوب غيرهم، ويتجرعون كلّ صباح وكل مساءً سماً زعافاً باسم العادات  
والتقاليد.. ما ذنبنا نحن أن ولدنا فتيات؟ هل نصرخ في وجه حواء: لم  
أنجبنا! لم خلقت لتسعدني آدم، بينما آدم اليوم يسلبك حق الحياة، وحق  
الأمان، وحق الكرامة، وحق الفرح، وحق اللعب، وحق التعبير بالرأي،  
وحق الحرية، وحق العمل، وحق اتخاذ القرارات!؟

هل نقف هكذا مكتوفي الأيدي أمام كل ظالم بحكم أننا ولدنا إناث،  
والأنثى في عالمنا مصدر للعار؟

ما ذنبي إذ كنت بين مقصلتين؟ هذا يختطفني وينهيني، وهذا يسجنني  
ويشتمني ويهينني. ما ذنبي إذ كان للناس ألسنٌ طويلة بطول رقبة الزرافة!  
وخيالٌ جاحٍ لا تسكن فيه قطرة من الضمير، ولا تحركه الرحمة، ولا  
حسن الظن. ما ذنبي أنا؟!

أعيش كل يوم كابوساً مرعباً، وشريط أحلامي يمر أمام ناظري، لينتهي  
به المطاف في الفراغ ليحترق هناك. ما ذنب كل طفلة تعاني الأمرين،  
ولماذا؟!؟

فقط ستأتيك الإجابة سريعاً: "لأنها فتاة"، والفتاة مصدر للعار، وإذا لم  
تمسك لجام الجمل فرّ من بين يديك". لكن نحن لسنا حيوانات؛ لنسجن  
في أقفاص تُنسج فيها خيوط العناكب، وتسكن معنا فيها الفئران.

حتى أصواتنا لا تملك عذوبة أصوات البلابل المغردة، لنسجن في قفص.  
كلا، فقد بحثت أصوتنا من الصراع مع عنفوان الحياة في هذا المجتمع.

مجتمع لا يرى النساء شقائق الرجال، وإنما مجتمع الرجال قوامون على  
النساء. وليتهم يفهمون معنى تلك الآية حتى يدركون ما يفعلون، ليتهم  
قبل أن يتبجحوا بنطقها، أن يعلموا أنهم قوامون عليهن، أي حمايتهن،  
وتحمل الأعمال الشاقة عوضاً عنهن؛ كون بنية أجسامهم أشد قوة وأكثر  
صلابة. وإن تلك العضلات خلقها الله لهم لحمايتهن، لا لضربهن.

خشى والدي ألسن الناس أكثر من أي شيء آخر، ماذا سيقولون! وكيف سينظرون؟ وبماذا ستتهامس النساء؟ ومن هو الشخص الذي سيحظى بشرف أن يكون فاكهة الغيبة والنميمة التي سيرددونها وسيتناولونها في مجالسهم؟ وكيف ستروى أحداث تلك الحادثة، ويتضح أحداثها بجميع أنواع الدجل والزيف، لدرجة أنك -سيد خالد- ستتعجب، وستصدق أقوالهم المبنية على الجهل والاقتراء. ولن تصدقني حينها مهما قلت وشرحت! فطبيعة مجتمعي أنّ ناسه مؤلفون بارعون في تلفيق الروايات والقصص، ليس عني فقط بل عن أمثالي أيضاً "كل فتاة ظلمت". بل حتى عن الجن والشياطين وعن كرامات الأولياء الصالحين التي يستحيل حدوثها وكذلك عن مدح المشايخ والوجهاء والأعيان وغيرهم.

كما آنذاك نعاني أزمة مالية مدقعة. لم يبقَ لدى والدي شيء ليبيعه. فقد خسر عمله بسبب اللاسبب، وليس هو السبب، وإنما أعجز عن توضيح السبب والمسبب له.

اقترض المال ممن تبقى له من الصحاب، وراح يجهز لسفرنا.. كان يريد أن يتعجل قدر الإمكان، فلم أرَ والدي يتعجل بتلك الطريقة من قبل أبداً، لأنه يؤمن تماماً بمقولة "في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة" لكنه ربما ظن أن في موضوع سفرنا خير، فحيث يقال أيضاً "خير البر عاجله".



كنت أسأل نفسي كثيراً "هل أمرُ سفرنا هروب من الناس، وماذا سيقولون عنا إن علموا؟ أم هو خشية من العادات والتقاليد التي ستحكم عليّ بتهمة لم أقترف جريمتها؟! وإذا كان كذلك؛ فإن عادتنا هي المحكمة على أخلاق الإنسان. حسناً ولكن من المحامي إذن؟! إذا كان والدي لا يهتم أمري قيد شعرة، كما يهتم قول الناس فيه وفيّ فهل سيكون محامي شخصاً بشرياً؟ أم مخلوقاً آخر!!

أفرك يديّ ببعضهما مطولاً ثم أتأمل المستقبل وأفكر في ذلك العالم المنقذ الذي سنختبئ جوفه، ذلك العالم الذي يمكننا أن ندفن رؤوسنا فيه، ولا ضرر في أجسادنا، طالما ولم يتعرف أحد على ملاح وجوهنا، يا ترى هل هو عالم يختلف عن هذا العالم؟! هل هو عالم يُحسن الظن، ويتفهم الوضع والظرف؟ يمسك يدك بحنان ويهون من ألمك وحزنك وفزعك؟ يربت على ظهرك ويقول: "لا عليك، ما فات قد مات، والحياة مستمرة، والشمس تسطع كل يوم؟! يقول ابدأ من جديد وبقوة أكبر فالحياة لا تتوقف عند أي موقف؟ تابع ولا تأبه لماضيك المظلم المؤلم فهو صفحة منطوية؟ سر على الدرب وأجعل حياتك مليئة بالأمل لا بالألم؟!".

كيف تراه سيكون هذا العالم الجديد؟! هل يحمل قنديلاً من الأحلام، يوزع نورها على ساكنيه؟ أم نسخة طبق الأصل من عالمي هذا، وربما أجمل قليلاً!

(17)

## إِيكَ عِنْدَمَا تَحْزَنُ

كَمْ نَحْنُ بِأَتْسُونَ؟

بأَتْسُونَ جُداً لدرجة أننا أصبحنا نخاف أن نضحك لحظة، حتى لا نبكي بسببها سنوات طويلة، ولذا أصبحنا نتظاهر بأننا حزانى، حتى في أسعد لحظّاتنا، ربما هو هوس الحزن والكآبة، ومن يدري لعله عشقٌ للحزن، وللعشق جنون، وجنون الحزن ليس له قانون ولا ميزان.. أحزن... ثم أحزن... ثم أحزن.. وماذا عساي أن أقول سوى "اللهم ارزقني صبراً وجبراً. صبرٌ ليس له آخر، وجبرٌ باقٍ غير عابر".

عادت ربا إلى دوامها بعد غياب دام لعدة أيام. وقتها كنت قد ألزمت نفسي بآلاً أسألها عن سبب غيابها. ربما لأنني لم أجد تلك الطريقة المناسبة التي أقول لها فيها "اشتقت لك" بطريقة تحاكي الألم الذي تجرّعته في غيابها.

هي تعلم ذلك، تدرك مقدار الشوق الذي يقطن في كل خلية من جسدي، وفي روحي، وكذلك في قلبي وعيناي. ومع ذلك فشوق العين فاضح ولهذا فقد أدركته تماماً. عيناي فاضحتان لي كالعادة.. ولكنها وبسبب كبريائها المستبد تتصنع التجاهل و اللامبالاة، بالقوة التي ليس لها حدود.

ولكن حقيقةً يقال "إذا كان تجاهل المرأة قاسٍ، فتجاهل الرجل مؤلم وشديد العذاب بمرات عديدة". أيضاً يقال "إذا كان الحبّ لدى الرجل سطر، فالحب عند المرأة صفحات!"

كوني كما تشائين... ستبقين بنظري طاؤوساً مغروراً بجماله ليس إلا! كوني موسيقى إذا شئتِ، كوني لحناً، كوني أغنيةً لكوني! ستبقين أنتِ ولا أحد سواك.

ظلّ الصمت سائداً بيننا.. ولا شيء سوى الصمت، ولكنه أبلغ من الكلام وأفصح منه أحياناً!

التفتُ حينها نحوي بعد أن لاحظت وجودي وغيابي طيلة الوقت، فقد كنت موجوداً كجسد، غائباً كروح وفكر، روعي تتشاجر مع نفسي وأتساءل: كيف أصبحت بهذه الحالة؟! ابتسمت وهزت رأسها بحركة استفزازية، ثم مضت... علمت حينها أنها لم تفقد 'قسوتها' وكأنما تقول: "عبثاً تحاول!"

تمنيتُ حينها لو أنني أستطيع أن أنزع تلك المسماة - المشاعر - من جوفي ثم أسحقها تحت قدمي، فقد ذقت ذرعاً بهكذا حال.

أذكر مرة أنني عندما سألتها عن أهلها، رأيت عيناها كأنما أصبحتا جمرأً متقدداً، ثم غادرت المقهى، ذهبت دون أن تقول شيئاً... وعندما سألتها في اليوم التالي، عضت على شفتيها وقالت: "لا تسأل!". ألحيتُ عليها كثيراً... فحرّكت حاجبيها إلى الأعلى وقالت

بزفرة مترعة بالألم: "فضولك هذا سيجلطني يوماً ما"... ضحكت وأجبتها: "وإن يكن .. المهم أن تجيبي علي".

- لا أعلم كيف يحتملك أهلك؟!

- ليس لي أحد ليحتملني..

ابتسمت بخبث وقالت: "لِمَ ليس لك أحد؟!"

أجبتها بخيبة أمل وإعلان لرفع راية الاستسلام: " فضولك سيقتلني... يوماً ما "

- واحدة بواحدة!

- يبدو ذلك!

تمتلك - هي - قدرة رهيبة على كتم أسرارها، كذلك تجيد أن تتسلّ من أصعب المواقف. ولها قدرة خارقة على الهروب من تلك الأشياء التي لا تريدها، أو لا تريد أن تتذكرها.. ولطالما تساءلت عما وراء تلك الابتسامة المصطنعة من ماضٍ. ويأبى كهف قديم نقشَتْ ذكرياتها؟ ولمَ كلما اقتربت ابتعدت وكلما ابتعدت اقتربت... هل تعمل على قوانينٍ معكوسة؟ أم تعكس هي القوانين لغاية تعلمها هي، وأجهلها أنا!!

أم هو أسلوب من أساليب المرأة؟ أم كانت تريد أن تطبق مقولة "كي يبقى الجميل جميلاً لا تقترب منه أكثر من اللازم".

ربما قصدت ذلك.. فبعض الأشياء نراها من بعيد شيئاً ساحراً، فاتناً وأنيقاً. ولكن عندما تقترب منه أكثر، وتتضح لك صورته أكثر،

ووجهه الحقيقي أكثر، يتبين لك آنذاك أنك كنت على خطأ في مبصرك. ولذا ستصادف كثيراً من الأشخاص ممن على هذه الشاكلة.

ليس البعد والقرب مقياساً لمعرفة الأشخاص فقط، فهناك أيضاً الظاهر والباطن.. فالبعض يظهر مالا يبطن، والبعض يبطن مالا يظهر. والبعض يتصنع القوة لأنه لا يريد شفقة من أحد، وكذلك يتصنع البعض الضعف. ومنهم من قد تراه يتصنع الفرح، وتراه يضحك طيلة وقته، ولكن إنما ضحكه ذاك فقط هو ضحكٌ على نفسه، إذ كيف يضحك من تلك حالته! والبعض يتصنع الحزن كي يظهر للعامة كم هو مسكين وطيب القلب، وفي قلبه ألف شيطانٍ وألف عفريت!

إن كنت حقاً تريد أن تتعامل مع الناس، تعامل مع تضاريس حياتهم، وتقلبات قلوبهم، وحتماً ستستغرب وتساءل كيف ذلك؟ وسأجيبك "وهل سمي القلب قلباً إلا لأنه يتقلب". عاملهم ببساطتك وبطبيعتك، ولا تتصنع شيئاً، فقط أظهر كما يشاء لك يومك أن تظهره.

إبك عندما تحزن، فما كانت الدموع يوماً عاراً، وإلا لم خلقها الله لك، خلقها الله لغاية أن تخفف عنك هموماً ثقلها كثقل الجبال! واضحك بسعادة حين تغمرك السعادة، ابتسم، افرح، اسرح، امرح، وعش. ولا تنسَ أن تعيش في هذه الحياة. فالحياة إن نسيت كيف تعيش فيها، حتماً ستتساک.

كتبتُ لها:

- أشكي لنفسي أم أشكو للناس ما بي؟ وهل من الناس من  
يقف على حزن بابي؟ الناس للناس وأنا لي رب يعلم بأنني دوماً  
ما أردت لأحد أن يعلم سر اكتتابي.

فأجابت علي بقولها:

- رغم الهموم التي عاثت بأوردتي  
وثقتُ بالله لا أخشى على ثقتي  
إن مزق الترحال باليأس أوشحتي  
غزلتُ من سندس، الآمال أثوابي  
عكس ما أتوقعها دوما تكون هي... وكأنها تقرأ أفكاري ثم تأتي  
بأفكار معاكسه لتبدا بإغراقي بها. قد أكون بحرا.. نعم، لكنها  
محيط... وقد أكون جمرا نعم، لكنها جهنم، وقد أكون غيوماً  
داكنة.. نعم، ولكنها سحبٌ مثقلة بالأمطار.

## (18)

### إلى عدن

آنسة "سين".. سيأتي يوماً ما وتقرئين ما كتبت لك عن قصتك هذه، ستفهمين وجهة نظري في عالمك المظلم. ستعيشين قصتي كما أعيش قصتك. ستنامين وأنتِ تقرئين ما كتبت، والدموع تغرق عينيك. فنحن معشر الكُتّاب سلاحنا الوحيد الخيال الذي ننسج خيوطه على الواقع. ولأن إحساسنا مرهف لدرجة أننا نتبع الحزن في أي شيء نراه أو نسمعه أو نقرأه.. نبكي على رواية نقرأها أو موسيقى حزينة نسمعها... وكأننا كما يقال: "دمعته معلقة على جفنه" لسهولة ما نبكي وعلى أتفه الأسباب.

عزيزتي **سأكمل لك** فربما تتزاح من عقلي تلك الندبات الموجهة:

هل من المنطق أن تسير تحت هطول المطر، وتصيح بأعلى صوتك "متى!" متى ينتهي هذا النفق المظلم؟ متى أصلُ إلى تلك الفتحة التي سيتسلل منها الضوء - ضوء الحرية - ليشعرنني أنني وأخيراً سأعود إلى الحرية... نعم أود أن يلتمس جسدي الخلاص.

عجباً! إذا كانت الشمس رمزاً من رموز السلام، فلمَ ليست كذلك في عالمي؟ لمَ يمشي الكثيرون تحتها، ويلتمسون ضوءها، ولكنهم ومع ذلك

مسلوبي الحرية؟. تراهم مكتومي الأنفاس، سماعون لمن يقول لهم أي كلام عابر! لم لا يطلق الإنسان حريته نحو الفضاء، لم نطلّ في حرب مع ذواتنا، مع أرواحنا ومع أنفسنا! أجل متى نفعل ذلك؟ متى؟

قرر والدي أن تبدأ رحلتنا من صنعاء إلى عدن؛ لأنها المدينة الوحيدة التي لن يتعرف فيها أحدٌ إلى ملامحه أي "لن يعرفه أحد هناك". ودعنا والدي وكلنا أمل بأن تكون تضحيتهم هذه لها فائدة في مشواري ... انطلقنا إلى هناك في الخامس من أيلول "سبتمبر". وقد سجلت تاريخ ذلك اليوم وكأنه يوم انتصارٍ لمعركة اجتاحتني لأشهر.. وكأن قلبي قد أعلن نداء استغاثة إلى السماء، فكلّ خلية فيه كانت تتنبأ بقرب خطر محقق، على وشك الحدوث. كنت كشخص يتقلب على الجمر، منتظرة الخلاص. إما رصاصة الرحمة توجه نحو جسدنا لينسل منها روحنا بهدوء إلى السماء، أو خلاص من كل هذا العذاب. كنت كشخصٍ اقترَب موعد استفاقته من كابوس مريع. بضع سويغات أخرى، وينتهي كل هذا العذاب. لكن كل ذلك كان يحتاج إلى وصفة مستحيلة من مشعوذ كبير.. (عين نملة عرجاء، وشعر برغوث، ورائحة صرصور يтим!!!!) ولكي تحصل على هذه الوصفة يجب عليك أن تقطع سبعة أراضٍ، وتعبر ثمانية أودية، وأن تتخفى من الجن والشياطين. وأن تقا تل عفريتاً يسكن أسفل الوادي، ثم تحرق ناراً من الأخشاب المقدسة، التي يسكنها روح الولي الصالح!! وهكذا ستصبح الوصفة جاهزة ثم ستتحقق أحلامك المستحيلة!

مجرد إبرة في كومة قش. كنت أنا الباحث الغريب الذي يبحث عن تلك الإبرة العجيبة، التي ستخلصني من كلام الناس، وسأنجو بنفسني من



قفص سيدخلونني فيه والذي يسمى 'قفص الاتهام'. والمشكلة أن هذا القفص الذي أبحث فيه عنها، عبارة عن سراب وهمي يتشكل بألف شكل وألف لون.

مضت الساعات وأنا في تلك الحافلة المزدهمة. ووالدي يقربي يشد يدي إلى يده بقوة. وكلما التفت نحوه يقول لي: "لا تقلقي يا حبيبتى، كل شيء سيكون بخير".

وأنا بدوري أظاهر بابتسامة مزيفة وأقول: "إن شاء الله "

كان والدي يلتفت نحو الوجوه الساكنة حولنا، وكنت ألمح الخوف في وجهه، ف قد كان يخشى أن يكون معنا شخص يعرفه فتفشل كل خطته؟ أو ربما كان يخشى شيئاً آخر... سألته بحزن: "والدي متى نصل إلى هناك ومتى سنعود إلى صنعاء" تأوه والدي بخيبة، ثم ردد بصوت حزين مرتين "صنعاء... صنعاء" ثم صمت ولم يقل شيئاً. التفت إليه مُلحّة كي يجيب على سؤالى فقال: "كل شيء سيكون على ما يرام.. سنصل إلى هناك عما قريب، لا تقلقي"

مررنا بالعديد من النقاط العسكرية وكنت أستغرب عما يحدث في وطني وبأي حال أصبحنا. دولتان في دولة، وفي الدولتان ألف دولة.. شعب يسكن فيه التفكير القبلي العنيف.. الآباء يعلمون أبناءهم: "إن لم تكن قاتلاً، فكن مقتولاً، فالقتل مثالٌ لموت المرء الشريف!"

شعب تنهال عليه الضربات من كل جانب، من الشقيق، من الصديق، من الابن، ومن كل شخص. ومع ذلك تراه يقاوم راغباً في العيش،

وليس حباً في الحياة. ولكن كأنما الحياة فرضت عليه ذلك. ينشأ الطفل بين عالم من الحروب والقتل، والدمار والحراب، حتى يصبح كل ذلك بالنسبة له شيئاً اعتيادياً وسلساً مهما كان، وأين يكن.

بعد أن عبرنا معظم الأراضي الجنوبية القريبة إلى عدن، استوقفتنا مجموعة من الرجال، وكانوا يطلقون علينا ألفاظاً غريبة عجيبة، أدركت حينها مدى انهيار الوطن والوطنية فعلاً. ف هَاهُمْ أبناء الوطن الواحد، ينهشون في لحوم بعضهم نهش الضباع للضباع. كان وقتها يُؤذَن للمغرب، والليل بدأ يحل بردائه الأسود على المنطقة ليزيدها ظلمة وكآبة فوق ما هي عليه. أدخل معظم الرجال للتحقيق، وتركت وحدي في غرفة قدرة متسخة. فقد كنت الفتاة الوحيدة القادمة في هذه الرحلة. طال الوقت جداً، وأنا أنتظر أي مصير يحل بنا. دخل رجل غريب الهيئة وصرخ في وجهي، ثم بدأ يسألني من أكون؟ وماذا أفعل هنا. لم أكن أعلم بماذا أجيبه، ولا ماذا عساي أن أقول؟ هل أقول هربت من عنف ألسن الناس في منطقتي؟ لأقف بين أقدام عنف أياديكم وعنف أسلحتكم. لم أقل شيئاً ولكن عندما طال صمتي وبدا صبره ينفذ، استدعى رجلاً آخر له نفس الهيئة والشكل المخيف:

- من مرافق هذه؟
- ذلك الرجل الهادئ!
- أها، وماذا تقرب له؟
- ابنته، وقد أخبرك مسبقاً أنها بكاء!

صعق قلبي مما سمعت، وفهمت رسالة والدي. سعدت كثيراً أنه يشاطرنى التفكير، فقد أدركت خطورة الوضع حقاً، وأنا فى موقف لن يحسدنا عليه لا دهر، ولا بشر، ولا حجر، ولا أى شىء فى الكون.

بقيت وحدي فى تلك الغرفة لساعات طويلة. تلك الساعات لا تحسب بالثوانى، ولا بالدقائق، ولا بالساعات، ولا حتى السنين الضوئية! إنما فقط يحسبها الانتظار، والصبر، وهل هناك أطول عمراً من هؤلاء؟ لا أعتقد ذلك أبداً. وحيث يقال: "أطول ساعات العمر ساعات الانتظار". حيث يخيّل لك أن كل قرون الماضى، والحاضر، والمستقبل، أتت واجتمعت عليك، لتفتك بك وبصبرك.

شعرت بظمأً شديد حينها؛ فقد كان الجو حاراً جداً، فجوّ عدن ليس كجوّ صنعاء... هنا كانت الحرارة حارقة وخانقة بالنسبة لى. كنت أودّ لو تأتينى قطرة ماءٍ فحسب، أو أن يأتى منقذٌ يهدينى السبيل مثل مريم - عليها السلام - وقصتها مع جبريل حين كانت لوحدها تتألم.

وقتها دخل الغرفة شاب يظهر عليه أنه فى الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمره، فقد كان شكله وحجمه يثبتان ذلك... بدأ لى مختلفاً عن رفاقه. (شعره مرتب، وأسود، لم يمكث الغبار فيه طويلاً، لحيته متناسقة نوعاً ما، وثيابه نظيفة ولا تظهر عليها آثار الغبار أو الوسخ)

اقترب منى وأعطانى ماءً والقليل من الطعام، ثم استدار وقال: "مجبرون على إبقائك هنا لفترة". نهضت من فوري وصرخت: "ووالدي ما حاله، وكيف هو؟" استغرب منى ذلك، إذ كيف أنطق، ثم تبسم قائلاً: لا

عليك أعرف والدك جيداً فقد شرح لي كل شيء عنكما" ثم اقترب نحوي  
وهمس في أذني: "وعدته ان أنقذك وأحميك ،لذا لا تخافي سيكون كل  
شيء على ما يرام". ثم خرج...

جلست أفكر فيما قاله هذا الشاب ولم يساعدنا، ونحن في نظرهم أعداء؟  
لكن ربما هي سياسة والدي! أو خطأ منه قد يوقعنا فيما لا نحمد عقباه.  
أصبحت أتوقع من الحياة كل شيء،، حلو ومر، قاسٍ ومفرح، سعيد  
ومحزن، وكأنّ لعبتها عليّ أصبحت مكشوفة، وحيلها أصبحت قديمة، بل  
قديمة جداً لدي!

## (19)

### الصندوق الأسود

يُطلق لقب الجبان على كل من يخاف شيئاً لا يستحق أن يخاف منه. ويطلق لفظ المتهور على من يظن نفسه شجاعاً ويرمي نفسه في الجحيم، وشجاعته تلك تقوده نحو الهاوية، ونحن أصبحنا بين فكي كماشة، إحدى أطرافها تسمى الجبن حتى الانسحاق، والأخرى التهور حتى الإفراط... أصبح معظمنا يهابون بشراً مثلهم، ليس من وجوههم ولا من أشكالهم بل من خبثهم ومكرهم وأفعالهم. لدرجة أنه عندما يُنطق لفظ ذلك الرجل أو الشيء تتقاذف ألسنة القلوب سباً وشتماً له. ولكن ألسنة القلوب لا يُسمع لها همس، ولا لمز، ولا حسّ إنما فقط عواء في السراب، وضجيج في صمت، وعالم من الإزعاج المضطرب الذي لا ينتج عنه غير قول "آه منه!"

الخوف يدفع بالإنسان للاستسلام أمام أي شيء مهما صغر حجمه، وقلت مقدرته. يروونه كبيراً وهو في الحقيقة سراب وهميّ وشيء بسيط يمكن أن تهشه بسبابتك ليس إلا. ولذا ترى كثيراً من الناس في عالمنا العربي مهزوزي الثقة، ضعيفي الشخصية، يخشون كل شيء. قليلو الحيلة، عديمو الصبر، يائسون حتى السماء السابعة. وكل ذلك يرجع لكمية الخوف التي تسكن قلوبهم، فإن لم تنزع

الخوف من قلبك ، سيزرع الخوف فيه بذوره وسيسكنه ويحيا ويموت فيه ، ولهذا كنت أردد في نفسي: "الخوف يصنع الانكسارات" "لا تسمح للخوف ان يتسلل إلى قلبك" "الخوف سلاح الجبناء ورداء الضعفاء ونهاية للأشقياء".

اتجهت نحوها ذات مرة بعد غياب الصمت الطويل الذي ظلّ بيننا ، أعطيتها كوباً من القهوة التي كنا نشترك في حبها ، ثم أبدت إلحاحاً في حاجتي للكلام معها وسألت:

- هل تسمحين ببضع دقائق؟
- بالطبع ، تفضل.
- ألا يبدو أنك تأخرت اليوم؟
- في ماذا تأخرت؟
- في الدوام ، ألن تعودني إلى المنزل؟!
- أها.. لا ليس بعد.. لدي مناوبة الليلة ، لذا سأبقى.
- إذن لأبقى أنا أيضاً.
- هل لديك مناوبة أنت أيضاً؟
- كلا... فقط أجد في هذا المشفى راحتي وسعادتي.
- لم أفهم!
- أقصد أنني أعيش وحيداً منذ أن مات أخي غازي.

شردت قليلاً ثم راحت تقلب الملفات التي أمامها وكأنها تقول "هيا انصرف حان وقت العمل".. نهضت من فوري بتثاقل وقلت: "حسنًا يبدو أنك مشغولة لذا سأذهب".

لكنها ابتسمت وقالت: "عفواً ماذا كنت تقول؟"

استغربت كثيراً لِمَ تعاملني هكذا؟ لستُ أفهم حقاً. أعدت لها ما قلت، لكنها حركت إصبعها نافية لما قلت، وقالت: "لست أقصد هذه العبارة بل التي قبلها".

قطبت حاجبي حتى أتذكر أي عبارة، وعندما تذكرتها خفق قلبي بشدة وراحت كل مشاعري تصيح: "وأخيراً فهمت ما أرمي له منذ مدة". جلست على المقعد، ثم قلت: "كنت أقول بأنني أعيش وحدي فليس لي أحد هناك". لكنها حركت رأسها بسرعة وقالت: "ليست هذه بل غازي. هل كنت تعيش مع غازي فعلاً؟! ثم ما قصتك معه؟ وما علاقتك به؟ و أئى له أن يكون أخاك وشتان بين اسميكما؟!"

تكسرت وقتها كل آمالي المرسومة للتو، ورحت أسبح بين قسوة الخيبة والمعاناة. ثم نهضت وقلت بتململ: "ليس قبل أن تقولي ما وراءك؟!"

ثم خرجت من مكتبها. ما زلت أتذكر جيداً ذلك اليوم الذي قدمت فيه إلى هنا، كيف كانت تنتظر نظرة شزرا نحو الرجال، أو كما تسمينا هي - الجنس المتغطرس - كنت أستغرب فعلاً، ماذا تساوي غطرسة الرجال جميعهم أمام غطرستها؟ وكنت أقول لزملائي لو أننا جمعنا غطرسة كل رجل في الكون، ثم ضربنا العدد في مربعه لما فاق غطرستها وكبرياءها!

عملنا سوية منذ أكثر من أربعة أعوام. هي على حد علمي قدمت من جدة إلى الرياض؛ لأن مشفانا طالب بها. لم أستطع أن أطيق أمر بقائها، لاسيما أنها تريد فرض رأيها في كل نقاش أو اجتماع. لكن مع مرور الوقت أصبح الكل معتاداً عليها، فهي كما يسمونها طفرة وراثية حدثت في المجتمع اليمني وأنجب مثلها.

تقدم لخطبتها الكثير ولكنهم قوبلوا بالرفض من قبل والدها. لا أعلم إن كان هو المتسلط عليها لتلك الدرجة؟ أم ماهو السبب الحقيقي؟! لكن بتّ أؤمن أن لكل منا ماضٍ يخشى أن يعرفه أحد. فهي لا تكثر من التحدث عن أهلها، ولا عن أصدقائها، وكذلك أنا، ليست رغبة في الصمت، وإنما ذكريات مؤلمة لا نريد أن نفتح صندوقها لأي أحد، فالصندوق الأسود لا يفتح إلا عند وقوع الكارثة ولا أعلم أي كارثة ستحل بي أو بها ليتحدث كلانا بما فيه، وينكشف ماضٍ مجهول الهوية.

عند الساعة الثانية فجراً، في نفس ذلك اليوم اتصلت بي تطلبني لغرفتها على عجل، أسرعْتُ نحوها وكأنما هناك أشباح تطاردني، وعندما وصلت فتحت باب مكتبها بقوة فقد كنت خائفاً جداً.

- ما بك؟
- لا شيء... فقط حسبت أنك الآن تحت رحمة سلاح أحدهم، فجئتُ لأنقذك!
- مزاح سخيف. هل تدرك ما تفعل؟



- في الحقيقة لا... فمعظم أفعالي تعد خارجة عن المنطق، على كل، ماذا هناك لتطلبين أن آتيكِ في هذا الوقت؟

نهضتُ من كرسيها، ثم توجهت نحو درج مكتبتها، فتحت صندوقاً، وأخرجت منه قصاصة من مجلة، ثم عادت مبتسمة بتحدي وقالت: "ما علاقتك بغازي عثمان"

رفعت حاجبي بتعجب وقلت: "وما شأنك أنت؟" رمت الصحيفة أمامي وقالت: "خذ هذه الصحيفة، واقرأها كي تسترجع ذاكرتك التي تتظاهر دوماً بأنك فقدتها؟"

أخذت الصحيفة وكلي غيظ من تدخلها في شؤون ذكرياتي القديمة، قرأت عنوانها البارز ذو الخط الكبير (ما سرّ مقتل الأديب السعودي غازي عثمان؟ وما سرّ إحراق جثث القتلة وما الدافع وراء كل ذلك؟)

التفت نحوها وقلت لها: "ما بالك مهتمة بأمر غازي إلى كل هذا الحد؟".

- فقط رأيت أنه المفتاح الوحيد لماضيك. (أجابت)

غضبت حينها وصرخت في وجهها: "وما علاقتك بماضي؟" ردت عليّ ببرود تام، وكأن أمر انزعاجي لا يعنيها فهي تريد الوصول إلى هدف محدد: "أتعلم! أكثر شيء أستغرب منه هو كمية الأسئلة التي يحتويها عقلك... ألا تمل من السؤال أبداً؟"

مزقت الصحيفة بيدي إلى قطع صغيرة، ثم ضممت كلتا يدي لضم تلك القطع الصغيرة بألم. لكنها باغتتني بقولها: "لا بأس لدي نسخ غيرها" ثم ضحكت وقالت: "الماضي مجرد صفحة عليك أن تتساها وأن تعيش حياتك بعيداً عنها".

ساد الصمت بيننا لبعض الوقت، ثم هممت بالخروج، لكنها استوقفتني وقالت: "أخبرني.."

- بماذا؟
- بقصة بمقتله.
- ابتعدي عن هكذا مواضيع، ولا تحشري أنفك فيما لا يخصك.

ظننتها بذلك الوقت ستتفجر باكية كحال أي أنثى؛ فقد كان كلامي جارحاً للغاية، والأسوأ منه أن نبرة صوتي كانت أقسى. لكنها عوضاً عن ذلك زمت على شفيتها وقالت: "ستخبرني عاجلاً أم آجلاً!".

بعد أن رأيت رغبتها الجامحة في معرفة ما حصل، استويت على الكرسي وأخذت نفساً عميقاً، ثم وضعتُ ساقاً على الأخرى وقلت:

- حسناً سأتكلم، فلا مفر منك. كنا سوية في سيارته البيضاء متجهين من الرياض إلى جدة. وكانت تلك أول نزهة لنا بعد أن دام فراقنا للسعودية سنوات طويلة. كان أخي غازي سعيداً جداً وبشوشاً لدرجة أنني لم أره في تلك الحالة قط من قبل. لا

أدري هل كان يعلم أنه سيموت في ذلك اليوم لذا كان سعيداً لتلك الدرجة؟ أم لأجل ماذا؟ وكلما سألته يجيبني بكلمات مقتضبة: "اليوم هو اليوم الموعود لي ولك". يلتفت نحوي ويقولها، ثم يبستم، و ينظر نحو الأفق بعيداً وشارداً. تعطلت السيارة ونحن في منتصف الطريق، ترجلنا حتى نصلحها. في تلك الأثناء أتى شابان مستقلان دراجة نارية، توقفنا ثم بدءا إطلاق النار بشكل همجي ثم رحلا بسرعة. أُصيب أخي بعدة طلقات حتى غدا مضرجاً بدمائه. وعندما رأنا شخص بتلك الحالة، اتصل بالإسعاف والشرطة لكن المسافة كانت بعيدة، ولن يصلوا إلا بعد فوات الأوان. أخذنا بسيارته إلى المشفى وعندما وصلنا كانت الشرطة في انتظارنا. كان جرحي طفيفاً، فقط رصاصة في الذراع، ولكن أخي لم يستطع النجاة. ولم أستطع أن أعرف إجابة تلك الأسئلة التي حيرني بها.

ثم صمت لبرهة، فقد كانت حشجة البكاء تسدّ مخارج التنفس لدي، وتخنقني، ولم أستطع آنذاك أن أكمل. علمت بأني لن أستطيع أن أكمل فبدأت تسألني كي تخرجني من حالتي تلك..

- إذن فقد تمّ اغتياله من أشخاص مجهولي الهوية عاري في الهدف.
- قطعاً.
- ألم يشتهه في أحد خصومه.
- لم تستطع الشرطة العثور على دليل واحد يقودهم لقتلته.

- ماذا قال أهله؟
- كما يقول أهل أي إنسان.
- أقصد ألم تلحظ أي شيء غريب في تلك الأيام .. أقصد أيام العزاء
- لا فقد كان كل شيء اعتيادي.

توقفتُ عن الكلام حينها، ربما حتى ترتب الأفكار التي كانت تبحث عنها. وربما كان توقفها ذاك ينبئ لها بأمر جلل قادم الوصول. نهضت لأذهب فقد كنت على وشك أن أفقد سيطرتي على كبح دموعي. نهضت بخطوات متثاقلة بينما كانت هي تغط في سبات تفكير عميق. توقفتُ عند الباب لبرهة شاردًا، فقد خطر على بالي موقف غريب كنت أقول في نفسي لربما كانت هي تبحث عنه منذ البداية.

عدت لأقف أمامها وقلت: "تذكرت... في اليوم الثالث من العزاء وقع لي موقف غريب، فقد أتت إليّ امرأة وحضنتني بقوة ثم مسحت على رأسي ومضت".

تبسمت ربا وهمست: "اليوم الموعود"

- ماذا قلت.
- لا.. لا شيء.. فقط تذكرت شيئاً عبرَ على ذاكرتي لا أكثر.

## (20)

### هل هي النهاية؟!

يقال: "انتبه لشيئين في حياتك ولا تتساهما: أفكارك عندما تكون وحدك، وألفاظك عندما تكون مع الآخرين". فالأولى تقتل بها نفسك، والثانية تقتل بها الآخرين. فكن شخصاً يقظاً في أفعالك وأقوالك، وفي حركاتك، وفي كل رمشة عين.

نحن في هذه الحياة مثل قارب تتقاذفه أمواج الحياة، لتلقي به في شاطئ الأقدار على جزيرة غريبة معزولة. نسير وراء قافلة المجهول، سكانها غرباء، وحماؤها سراب، وبضاعتها ألحان الأموات و أنينهم. ومع أنني أستبعد كل البعد أن تسمع للأموات ضحكة. إلا أنني أؤمن تماماً أنهم يعيشون في عالمٍ وهمي آخر. وكأنّ الأقدار تقودنا كراعٍ يرعى أغنامه في حقل أرضه جرداء، ومياهه مالحة. يتخبط بنا يمناً ويسرة للبحث عن مرعى ومكلاً لكن دونما أي جدوى.

ينظر مد البصر، ويرفع يده فوق عينيه ليستطيع أن يرى ما وراء الأفق. البحث ثم البحث ثم البحث. وما زلتُ أراك عزيزتي "سين" كما أرى نفسي، نتخبط وراء القدر. ونبحث عن أشياء لا أعلم هل حرمتها أم هي التي حرمت أنفسنا منها.

لكنني ما زلت أرى مشوارك في الألم يكبر يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة. وما زلت أتعلم فيها وألتصق بقربها أكثر وأكثر. فهي ليست رواية عادية، بل مشوار ألم يقوده حزن، مرة تلو أخرى.

## الأهل لك:

كنت نائمة على الكرسي نفسها منذ أن وصلت إلى هناك فقد غلبني النعاس والألم. حتى سمعت صوتاً هامساً: "انهضي، هيا بسرعة". استيقظت فزعة خائفة كطفل فتح عيناه ولم يجد والدته بقربه.

- ماذا... ماذا تريد؟
- يجب أن نخرج الآن.
- إلى أين نخرج؟
- ثقي بي أريد أن أخرجك من هنا سراً.
- ولم أثق بك؟ ما الذي يثبت لي صدق نيتك؟
- والدك هو من سيثبت لك ذلك.. هيا بنا.

ذهبت معه والخوف يدق عظامي، والخشية والرغبة تستفزاني من كل ناحية... دخلت غرفة مقفلة النوافذ ورائحة التنانة تفوح منها. كانت عيناى تتحركان بسرعة وكأنما ألاحق شبحاً يطير في الهواء، خاشية أن ينقض عليّ! أحسست بيد تمتد إليّ من خلفي، فالتفت بسرعة لأرى يد من تلك فإذا به والدي!

أمسك والدي كتفاى بقوة وقال: "ابنتى، ليس لدينا وقت، لذا اسمعيني جيداً، ستخرجين مع هذا الشاب، وهو سيتكفل بحمايتك"

- لكن كيف نثق بالغرباء يا والدي؟
- لا حلّ آخر، نفذي ما قلته لك فحسب.
- يا أبتِ سأفعل ما تقول، وسأكون إن شاء الله من الصابرين.
- بارك الله فيك.
- ماذا عنك؟ ماذا سيحل بك؟
- كل الخير إن شاء الله، لا تقلقي عليّ، أن تكوني بخير هذا كل ما يهمني.
- إن شاء الله.

ذهبتُ مع ذلك الشاب الذي تين لي من أقوال زملاءه أن اسمه أحمد. استقلينا سيارة صغيرة إلى بيتهم، وعندما وصلنا إلى هناك كان جميع أهله نائمين. استقبلتنا والدته بعينين حراوين وتجهّم لم أعهد له مثل.. أدخلتني غرفة صغيرة مكونة من سرير ودولاب صغير ونافذة صغيرة مهشمة، ثم خرجت وأقفلت الباب خلفها.

كنت مرهقة جداً فارتميت على ذاك السرير ونمت، ولم توقظني إلا أشعة الشمس المتسللة من بين ذلك الزجاج المهشم. جلست أتذكر كل ما مرّ عليّ خلال هذه الثلاثة الأيام التي مرت، كل تلك الحوادث المبهمة والغريبة. وحينها سمعت طقطقة، فتح الباب ودخلت تلك العجوز وهي تهمهم بألفاظ غريبة. وضعت بالقرب مني ماءً وطعاماً ثم قالت: "إذا احتجت شيء اطرق الباب طرّقاً خفيفاً فإن للجدران آذان!". فهمتُ ما قصدت تماماً وأتّى لي إلا أن أفهم ذلك! وأنا قد هربت من وحل من

الأفكار الغريبة المظلمة. كنت أتمنى أن يأتيني أي خبر من والدي. فقد ذقتُ ذرعا بهذا الحال؟

مرت أيام تلوها أيام، وأنا أعيش في ذلك السجن الصغير ك فأر يخشى الخروج من جحره؛ لأن هناك قط يقبع قرب الباب، ينتظر متى تخرج فريسته لينقض عليها. كانت تلك العجوز تخشى كثيراً أن يعرف الجيران أمر وجودي في منزلها. وكانت تصيح أحيانا، بأني سأسبب لأبنها لعنة العار. كنت أراها كعجوز غجرية، أو كساحرة تسكن كوخاً في غابة موحشة، وتخشى أن يكتشف سرها أحد.

لطالما شعرت بقسوة الحياة، ولكن قسوة أيامي في عدن، لم ألقَ لها مثيل. صحيحٌ أنني كنت في صنعاء تحت وطأة العذاب، والسجن، والوحدة، والكتابة. لكن على الأقل كنت بقرب والدي ووالدتي، يميناً عليّ بالرحمة ويخشيان عليّ، لكنني هنا وحيدة، أقبع في وحدة لا يسكنها أحد من البشر عداي.

- ماذا تريد منهم؟ دعهم وشأنهم. (قالت العجوز لأحمد)
- يا أمي لمن أتركهم.. البنت لا يوجد لها أحد.
- ما دخلك أنت بهم، ثم لا تنس أنهم من قتلوا أباك.
- والدي لم تقتله هذه الفتاة المسكينة الضعيفة التي لا أحد لها سوانا.
- قتله أهلها وناسها وقومها.
- أرجوك يا أماه ارحمي حالها، ما ذنبها؟ هي وحيدة ولا يوجد لها أحد.



- ماذا سيقول عنك الناس؟ إذا علموا أن هناك فتاة حامل تسكن معنا.

- وكيف لهم أن يعلموا ذلك؟

- آذان الناس كما المغناطيس تلتقط أي خبر، صغير أو كبير، ظاهر أو خفي .

- لا أعلم كيف أشرح لك الأمر؟ ولا متى ستفهمين؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا كل يوم، وعلى هذا المنوال. ولكنني ومع كل ذلك لا ألومها. فقد كان الحق معها وكل الحق.. كنت غريبة عنهم، ووجودي بجانبهم يجلب الشُّبه والتهم. وهذا الشاب طيب القلب، ولا يستحق أن يحصل له أي أذى. ما ذنبه ليتحمل ذنب أخطأ به غيره؟ تساءلت مطولاً ماذا أفعل، وكيف يمكنني الرحيل؟! وأين تراه والدي ليخرجني من هذا الحال؟

- سيد أحمد... هل لي ببضع دقائق من وقتك.

- بالطبع تفضلي أختي... ماذا تريدين؟

- والدي، أين هو؟ وكيف حاله؟ ومتى يُفرج عنه؟

- يمكنني أن أجيب على السؤالين الأولين أما الأخير فلا أستطيع.

- لم؟

- هو في الحجز، وهو بخير وبصحة ممتازة، ويسألني دائماً عنك.

- أرجوك متى سيخرج؟

- لا أعلم لي متى سيخرج؟ وليس لدي أي معرفة بذلك. وأرجو منك

ألا تسأليني مجدداً عن هذا.

عدت بعدها إلى غرفة المحجز المنزلية التي أقبع فيها. وأنا أفكر كيف ستكون  
نهايتي. هل سأظل هنا حتى الموت! وما حال هذا الكائن الذي يسكن  
في أحشائي أي مصير سيء سيكون له. هل هي النهاية يا ترى؟ أم هي  
مجرد بداية لعالم جديدٍ من الحزن والألم.

## (21)

### حركة تاغوث!

لهذا العالم الواسع وجهة نظر متباينة من شخص لآخر. ولذا فإن جميعهم سيحاولون، وسيبذلون أقصى ما لديهم من طاقة فقط لإقناعك بوجهة نظرهم، وفلسفتهم الخاصة، وقد تبسم فقط ليظنوا أنك وأخيرا فهمت قصدهم. ولكن كل ما تريده بابتسامتك تلك أن تخرسهم وتسكتهم.

قد تسأل إذن من نكون! سأجيبك بأننا عالم من الأشياء المحزنة فقط. أوهام نحن بنيناها، ونحن صنعناها ثم عادت لتلتهمنا من جديد. وها قد نجحت، وأصبح الحزن ونحن واحد. أينما حل الحزن حللنا نحن أيضاً. فهو بيتنا ووطننا، عالمنا وحياتنا.

نحن عالم من الموسيقى البائسة، التي يترنم بها أطفال الشوارع ليلا تحت المطر. لنا ألحان ممزوجة بالخيبة لكل شيء. فقط أغمض عينيك وتذكر أين نكون؟ ستجدنا هناك، وهنا، وفيك، وفي جوفك، تحفنا ذكرياتك المؤلمة والمحزنة.

قد تحتار وتتساءل ما معنى أن تكون ضائعاً في متاهة من دخل إليها لا يخرج أبداً؟ أن تسكن الوحدة كل خلية من جسمك؛ وكأنها تسير مع تدفق الدم في شرايينك. أن ترى الوهم حقيقة، والحقيقة

وهما. أن ترحل إلى أبعد نقطة في الأرض، فتكتشف أنك لم تبحر مكانك ولو لخطوة، أن تسير أفكارك في حلقة مفرغة من أي مخرج، وقد تأتيك الإجابة مشفرة لتبدأ بحلها كلما حلت عليك غيوم الحزن.

عندما كنت في بريطانيا كنت أرى اختلاف لذة الحياة في عيون الناس. هناك يمكنك أن ترى أن لكل شيء نكهته الخاصة، وطعمه المميز، وكأنما يهتمون بتذوق كل شيء في الحياة، لدرجة قد تصل إلى حد الوقاحة. "أتريد أن تعيش حقاً! لا تصدق كل ما يقال، ولا تتبع إلا من يناديك، ولا تتفد كل ما تؤمر به! لست عبداً لأحد" قال لي أحدهم ذات مرة هذه العبارة ثم مضى في حال سبيله. كنت حينها أسير مع أخي غازي وعندما رأيت الرجل ينصرف تعجبت مما فعل! وقلت بلا أي تردد: "معتوه!".

ضحك غازي بقوة، وربت على كتفي وهو يردد: "رب مجنونٍ خير من ألف عاقل". سألته: "حقاً! وكيف ذلك؟" أجاب: "المجنون يرى أشياء لا يمكننا رؤيتها، أشياء خفية لا نستطيع تفسيرها، ولا تقديم الحلول لها. ولهذا نجهل ما يعلمه هو". لم تقنعني إجابته تلك؛ فأردت توضيح مغزى قوله فقلت: "وماذا عن أفعالهم؟". توقف عن المشي، ثم رفع يديه إلى السماء وتمتم: "هو حر، كطائر يحلق بكلمات جناحيه في السماء". نظر إليّ مطولاً ثم أردف قائلاً: "المجنون حر، له عالمٌ مختلف في عقله أشخاص ومواقف وحوادث. هو يراها فحسب. يعيش معها يتنفس هواءها، ويأكل من خيراتها، فقط عالمٌ مختلف". ومع

أنني حينها لم أع شيئاً مما يعنيه بقوله، إلا أنني هزرت رأسي  
وكأنني فهمت!!

- أتعلم يا خالد ما الفرق بين أي ثورة عربية وثورة غربية؟
- ماذا؟
- العرب يقدمون دماءهم، وأرواحهم؛ ليخلعوا فاسداً، ويضعوا مكانه فاسداً آخر! فيأتي الآخر أشد ظلماً وأكثر قهراً ممن سبقه، أما الغرب فيقدمون دماءهم وأرواحهم ليخلعوا فاسداً؛ ويجعلوا منه عبرة لمن يعتبر. بحيث أنه لا يبق فاسدٌ يرغب في الحكم، ولا يتبقى إلا الشرفاء المخلصون، ولهذا يا عزيزي لاحظ الفرق بين دولتين، إحداهما تهبط إلى قعر الجحيم، والأخرى ترقى إلى السماء، نحن من نولي على أنفسنا من يضطهدنا، ويعذبها، ويقرص على آذاننا كلما بدأت أصواتنا تلعو قليلاً فوق صوته.

أجل هو كذلك. نعيش حياتنا كجيل يلحق وراء شيء. يهرول بسرعة كبيرة نحو المجهول. نحن نبحث عن التطور والتحضر، والرقي في الأشياء الثانوية، وننسى الأشياء الأساسية المهمة. ننسى أن العلم إذا لم يقوده عالم، قاده جاهل إلى المذلة. فبالعلم بنيت مدينة هيروشيما، وبالعلم أيضاً سحقت من الوجود، وبالعلم أيضاً عادت وبنيت من جديد! ماذا لو تطور العالم العربي؟ وأصبح عالماً راقياً، متحضراً ومتعلماً، ترى كيف ستكون هيئته؟ هل سنرى الأغنياء ينفقون أموالهم على الفقراء، والمرضى المعدمين، عوضاً عن إنفاقها

على السفريات المترفة والقنوات المائعة الساقطة؟! أترى يكون مقام العالم عظيم! بحيث يحظى باهتمام رئيس الدولة، وتُوفر كل احتياجاته لإتمام مشروعاته، وأبحاثه. عوضاً عن تركه يعيش في الغربة، يذوق مرها ويتجرع كأس الأشواق والحنين للوطن! أم ترى سيكون هناك جيل مثقف متعلم ينبذ كل الأحزاب، والفرق، والمذاهب؟! سنيّ يعيش مع شيعي، وبعثي، وعلماني، وسلفي، تحت سقف واحد! همهم الوحيد خدمة دين يحفظ للإنسانية كرامتها وخدمة وطن أكرمهم! هل سنظل نتقاتل على سقاسف الأمور والترهات؟ أم سيكون سلاحنا القلم، وشعارنا نبني لا أن نهدم؟

متى سنجد حلولاً لكل هذه الأسئلة؟ مع العلم أن الكل يعرف إجابتها، ولكن تأخذه العزة بالإثم ليجيب عليك: "أنت شخصٌ واهم، اليوم إذا لم تكن معي فأنت ضدي"

أثناء رحلتنا في هذه الدنيا، سنبحر، ثم نسبح؛ لنصل إلى الشاطئ بعد تحطم سفينة الأحلام التي كانت تقلنا، والسبب يرجع لعاصفة رعدية و أمواج عظيمة، كسرت كل آمالنا عنوة. فترانا نفرق في ظلمات تحتها ظلمات، وفوقها ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة النفس. ثم يشاء لنا القدر أن نطفو على خشبة مهترئة، تحمل في فتاتها بقيةً من أمل. تقذف بنا طيات الأمواج نحو الساحل. ساحلٌ لعالمٍ غريب، حيث تختلف ملامح الأشخاص الذين عهدتهم. ستحاول أن تتكيف على وضعك الجديد في ذلك العالم. لكنك ستدرك أن ذكريات الماضي مازالت تؤرقك، وتقضّ نومك، ليرحل عنك

كذبابة مزعجة ، ستسهر على ألحان الماضي ، وإن كنت لا تطيقه ،  
فقط سيحلو لك كما لم تذق مُرّه قط!

ستبكي ، ستشتاق ، ستحزن ، ستتساقط دموعك. ثم ستصحو في  
الصباح لتتسى كل ما كان في أمسك. وهل سمي الإنسان إنسانا إلا  
لأنه كثير النسيان!!؟

ف واعجباه! أكنت أنا عكس كل البشر؟! لم لا يزور النسيان  
ذاكرتي ولو للحظة؟ لم تظل أطيايف الماضي تلاحقني أينما حللت ،  
وأينما رحلت؟

لم أنت بذاتك لا أستطيع إزالتك من عالمي الافتراضي الخيالي؟  
لم لا ترحلين ، وتتركينني وشأني؟ أدرك تماماً بأنها لن تجيب! فهي  
حتى لا تستمع لما أقوله! فكيف ستجيب؟

- هل أستطيع الدخول؟
- تفضل.
- كيف كانت عطلتك الأسبوعية؟
- كالعادة نصفها نوم والنصف الآخر قراءة.
- ألهذا الحد أنت كسولة؟
- لم؟!
- لا أراك تُغيرين روتينك اليومي!
- امممم ، ربما لا يوجد شيء يستحق أن أتعب لأجله.

فهمتُ ما رمت إليه وسكتَ. لكنها بادرت بكسر الصمت الذي حل علينا لتقول: "أتيت لتحدثني في شيء مهم، لذا ما هو؟". رفعت حاجبي بدهشة كبيرة، وسألتها: "كيف عرفت؟" أجابت بمكرٍ مستفز:

- عيناك تفضحانك، وصوتك يشهد بذلك.

ضحكت بههمة، وقلت:

- حسناً معكِ حق، أردت أن أجيب عن أسئلتك التي تسأليني بها دوماً عن غازي!

ابتسمت، واستوت في جلستها ثم قالت:

- حقاً! وأخيراً. حسناً تفضل... كلي آذان صاغية!

بدوت محتاراً، أبحث في ذكرياتي المبعثرة ثم نطقت:

- من أين أبدأ؟

- ما سبب سفره إلى الخارج وتركه وطنه؟

- الخيبة التي تعرض لها!

- عن أي خيبة تتحدث؟

- حسناً... لقد كان أخي غازي من أفضل الكُتّاب، وكان له من القراء الكثير، كانوا يتطلعون شوقاً لما يكتب، ثم ظهرت من بين تلك الحشود معجبةً أعطاها مكانة خاصة في قلبه. أحبها، وأحبته، ووصل حبهما لكلّ الأسماع وكلّ الأزقة، وشهدت على حبهما الورود، وكل أنواع الموسيقى، وقوافل العشاق وأبيات المحبين. ولكن كانت تلك الفتاة من



طبقة ثرية فهي ابنة لأحد الأمراء. والسيد غازي مواطن بسيط، وكما ترين فإن مجتمعنا العربي يدقق في الاختلاف، والتباهي كثيرا، فقد تم إجبار تلك الفتاة من الارتباط بقريب لها، وحينها جن جنون أخي غازي، وراح يكتب عنهم ويصفهم بالطامعين الجشعين، وبأنهم يظنون أنفسهم آلهة وغيرها من الألفاظ. بدأت الدولة تلاحظ تحركات هذا الشاب، وكيف بدأ الشباب بالالتفاف حوله؟ فبدأت عملية الملاحقة بينهم. تشكلت مجموعة سرية أطلقت على نفسها اسم "تاغوث"، والتي كان تعرف كمصطلح بينهم ومعناه "الشخص الحر"، وبعد الكثير من الكرّ والفرّ تم إرسال تهديد صريح لأخي غازي بأنه إذا لم يغادر السعودية خلال أسبوع فسوف تزج السلطات بأهله في السجن. فرحل حينها.

- وتلك الحركة ما مصيرها.
- لا أعلم.
- وبعد أن سافر ماذا فعل؟
- درس ثم عمل في إحدى الشركات.
- ألم يعد إلى السعودية قط؟
- بلى كان يفعل ذلك متخفياً، وفي فترات متباعدة.
- ألم تبقى له أي صلة بحركة "تاغوث" بعد أن سافر؟
- لا أعلم..

شردنا الاثنين في تفكير طويل. كنت أبعثر أوراق ذكرياتي؛ عليّ أصل إلى سبيل أو حل مقنع، أو تفسير مرضي لما حدث في ذلك اليوم.

ثم التفت إليها وقلت: "ربا...". لكنها ظلت تحقق في حاسوبها؛ تبحث عن شيء ما. أعدت مناداتها مرة أخرى، ولكن بصوت أقوى: "ربا". همهمت قائلة: "هممم".

- ماذا تعتقدين صلة تلك المرأة بغازي؟

- ربما تعرفه.

- وما شأني أنا بها لتأتي إليّ وتحضنني؟

ضحكت وأجابت: "تظنك ابنه!". أجبتُ بصوت متأفف:

- الكل يعلم أن غازي لم يتزوج.

- إذن تعرف عنك ما لم تعرفه أنت عن نفسك! وكان غازي يعرف ذلك قطعاً.

بصوت حزين قلت لها:

- إذن كيف أصل إليها.

التفت نحوي وقد بدت على وجهها ملامح الجدية، ثم هرشت على وجهها بكلتا يديها بتعب وقالت: "ربما يعرفها أحد الحاضرين في العزاء". حينها أحسست أن أمر تلك المرأة مفروغ منه، إذ لا سبيل للوصول إليها. ومع ذلك ما كنت لأستسلم في طريقي نحو البحث عما حدث في الماضي الخفي المبهم. كانت "ربا" سبيلي الوحيد لأبحث عن ذاتي. كنت كمخدوعٍ ظلّ يتخبط في ماضيه لمدة طويلة من الزمن. حينها كنت قد بدأت أشك بكل شيء مر علي. ولكن لا يمكنني أن أتخلّى عن تلك الأيام التي عشتها وقضيناها سوية. فقط

كنت أريد توضيحاً ليس إلا. ترى ما سر تلك الأسرار التي كتمها غازي عني؟ وما مصيري بدونها؟ وإلى أي هاوية سأصير؟ كنت أدرك تماماً أنها تبحث عن شيء ما في ماضي. وكأنها ما أتت لتعمل في هذا المشفى إلا لغرض ما؟ أتذكر جملة قالتها لي عندما التقيت بها في يومها الثاني في المشفى.

- هل أنت الطبيب خالد؟

- نعم هو، لم تسألين؟

- نحن زملاء الآن. أولاً يحق لي أن أسأل!

ثم مضت، وكنت كالأبله أخاطب نفسي: "ما بال هذه المعتوهة!". لكنها استدارت وقالت: "لنا نقطة في ماضٍ مشتركٍ ليس إلا". فما سر هذه النقطة وأين تبدأ؟ وأين تنتهي؟ بعد أن بدأت بتحري الأمر الغريب الذي حصل في الماضي، وتلك الأشياء المبهمة. أخبرتها بحقيقة أخبرني إياها غازي يوماً ما... ألا وهي...

- "أنني طفلٌ يتيمٌ الوالدين... عشتُ خمس سنين في كنف

حنانها، ثم حصل لهما حادث سير وماتا، وبقيت أنا في هذا العالم. كان غازي صديق والدي المقرب وأوصاه بي إذا ما حلّ به شيء ما، ولأنه كانت هنالك مشاكل بين والدي وأهله في سوريا، فلم يشأ غازي أن أذهب إليهم. وكلما ترجيته أن أزور أهلي هناك كان يقول: "هم لا يريدونك فلا تذهب إليهم". كان والدي يعمل محامياً، بينما والدتي كانت تعمل ممرضة في أحد مشا في جدة. تعرف والدي على غازي عن طريق حركة

"تاغوث" تلك. فقد كان والدي من ضمن أولئك الذين يقفون في صفّ غازي. وبعد أن حدث الحادث وتم تهديد غازي، أخذني وسافرنا سوية إلى بريطانيا. درست هناك الإعدادية والثانوية. ثم استطعت أن أحصل على منحة دراسية للجامعة ودرست حينها الطب هناك. عشت كل تلك السنوات تحت رعاية غازي، وتحت حمايته. وذقتُ معه ما لو كان والديّ حيّين لعشته معهم. عدنا إلى السعودية، ولم أكن أعلم ما السبب؟ فقد كان غازي كتوم جداً لدرجة أنه يظن أحياناً أنه تفوه بكلام، بينما لم يقله البتة. وعندما أسأله يقول: "لقد أخبرتك بهذا مسبقاً".

ومهما حاولت معه أن يخبرني، يتجاهل طلبي كعاداته. لعل طفولتي كانت غريبة نوعاً ما، ومقصورة على أشخاص محددين يعتدون بالأصابع. فما كنت منفتحة، ولا اجتماعياً. وفقط كل ما كان يهمني هو الحيز الذي أعيش و أتحرك فيه، ربما هو شعور الوحدة الذي انغمست فيه، وربما عشقي للهدوء، كان يكفلني ويمنعني من أن أحيا حياةً صاخبة.

## العادات والتقاليد

يظنّ بعض البشر أن الشيء الأكثر هرطقة في هذا العالم هو إيماننا بأنّ ما سيأتي سيكون أفضل مما ذهب. مع أن إيماننا العميق يكمن في أننا نخضع لقوانين تسير بنا، لا نحن من يسير بها.

إننا وبإيماننا هذا نزيد من بؤسنا بؤساً، ومن تعاستنا تعاسةً مضاعفة، لذا لن أخبرك بأن المستقبل سيكون أجمل، فمن يدري ما هو مكتوب لك في ظهر الغيب! ولكنني سأخبرك سرّاً مهماً، وهو أن المستقبل نوعاً ما هو مرآة لحاضرنا. وإذا أردت مستقبلاً مشرقاً عليك بأن تتيره من الآن بالجد والعمل، وبإيمانك العميق بنفسك، وبأنك لن تستسلم لأي ظرف، ولا لأي عثرة قد تقف في طريقك يوماً ما.

ولهذا أيامك التي توالى تدق مسمارها على صدركِ آنسة "سين" كانت تظنك حجرة صلبة لا يمكن اختراقها، لم تكن تعلم أنّ بعض الظنّ إثم! وما زالت تعتقد الاعتقاد ذاته، وتؤمن بظنّها نفسه. ولا مفر لك سوى أن تستسلمي لدقها فوق صدركِ، حتى يخترقه المسمار وترتاحين من كل ذلك الألم والعذاب.

لم أكمل قصتك بعد ، ليس تماطلاً مني ولا تجاهلاً ، وإنما أحب أن يكون لكل شيء وقته ، ولكل شيء ثمنه ، ولكل شيء مواعده الذي أرتاح له ، ويرتاح لي ..

## والأهم لك:

كنت كفراشة أطيّر بجناحيّ حول مصباح يشع نورا وحرية. ظننته ملاذي الأخير، ونورا بعد ظلمة طال بها عهدي، ودهري، ولكنني لم أكن أعلم أنني بنور الحرية سأحترق، وسأتحول إلى رماد . تأخذني الريح حاملة إياي أينما ذهبت، ولهذا ترى البعض منا يرمي نفسه في وكر الذئب، أو يدس يده في شق لأفعى، أو يظهر أمام قناصٍ ويصيح "أيها الأبله ارمي عليّ رصاصك إن كنت رجلاً فعلاً!

نسير وراء المجهول، ونتخبط في طريقنا وراءه. ونتعثر أقدامنا مراراً، وتكراراً، ونحن نلحق به. إنه الشبح الذي نطارده، لا أن يطاردنا. نريد أن نمسك به. عله يقودنا إلى العالم الآخر، لكنه كان وهماً وكيف للوهم أن يقودك إلى الحقيقة؟

عالمنا أصبح موحشاً مخيفاً. قد لا ترى ما أرى أيها القارئ! ولهذا ستحكم عليّ أن فلسفتي تشاؤمية متعالية. مع أنك في أعماق نفسك ستقول نعم فهكذا هي الحياة في عالمنا الواقعي. عالم يخلو من التخيلات الجميلة، ومن الأحلام المشرقة البراقة.

كنت أتلاشي حتماً بدون والدي، فهذا هو آخر جدارٍ استندتُ عليه يغيب عني. كم تعب لأجلي وخاف علي من مستقبلي! كم ظل فكره معلق بين

سماء الخيال ومرارة الواقع البائس! كم كانوا أوغاداً حين آذوه وأهانوه  
وشتموه، إذ كان جلّ همّه أن يحميني منهم فقط. كان كأسدٍ خائر القوى  
يدافع عن صغاره، والضباع تلتفّ حوله تريد أن تنهش عظامه ليحين  
دورنا. أين أنت يا والدي الآن؟ وترى ما هو حالك؟

كان النهار مظلم في عالمي، والحياة مكفهرة متجهمة، وأنا في سرداب تلك  
العجوز أمضي ما تبقى لي من عمر. هي تبحث عن حل للخلاص مني، وأنا  
أبحث عن حل للهروب منها، وما كان لكل منا حيلة إلا الصبر. عبثت  
مشاعر الخوف بقلبي وازدادت مشاعر التشاؤم أكثر. كرهتُ أن يعاملني  
الآخرين بشفقة، فأنا قوية ولن أجتو بين يدي أحد، ولأي سبب كان.  
توالت الأيام وصوت العجوز يزداد ويعلو. أصبحت مشاجراتها اليومية مع  
السيد أحمد تفوق التوقع والاحتمال. كنت أعلم أنه لا يوجد بيدي حيلة،  
وليس هناك ما يمكنني أن أفعله. لكن كما يقال: "للصبر حدود" وأما  
صبري فقد تجاوز كل حدوده، وفاق المتوقع، وحينها بدأت نبضات قلبي  
تنادي بحزم: "نفذ صبري. نفذ صبري!"

قررتُ حينها مغادرة المنزل. سأخرج إلى أرض الله، فأرض الله واسعة.  
ولن أخشى شيئاً ف الله خير حافظاً وحفيظاً. انتظرت مطولاً متى تنسى  
تلك العجوز الباب مفتوحاً، فقد لاحظت عليها مؤخراً أنها تتركه وراءها  
مفتوح عمداً، وكأنها تقول لي: "تفضلي من غير مطرود". كنت مصرة على  
أنني سأنتهز الفرصة متى ما سنحت لي. سأمضي ولن أكون وحيدة  
مطلقاً. فالله مع المظلومين دوماً.

هربت سراً، ورحت أجوبُ شوارع عدن ك بلهاء أصابها مسٌّ من الجنون. ولكن لا بأس، المهم أنني لن أتسبب بمشاكل أكثر لمن حولي. كنت أدرك مقدار الخطأ الذي صنعتَه. فلو عاد والدي لن يجدني في ذلك البيت وسيجنّ بحثاً عني. ومع ذلك كنت أردد: "إن كتب الله لنا اللقاء، فحتماً سنلتقي".

سُقيت حينها مزيداً من الألم، والعذاب، ونكد الحياة. أصبحت مثل أولئك الذين رماهم الدهر في الشوارع، ولا أحد يأويهم من بردٍ أو مطر، فقط عائشون كأنما يقولون للحياة: "سنعيش فيك رغماً عنك وعن مرارتك!". لن أتطرق للمزيد من التفاصيل، فجرد تذكر ذلك الحال يقشعر له بدني رعباً وخوفاً، ألماً ورهبة، عناءً ومعاناة.

مضت أسابيع وأنا مرمية هناك. أختبي من كلاب الليل - سواء كانوا بشراً أو حيوانات - في أبشع الأماكن وأقذرهما. وعندما يحل الصباح أذهب للاختباء بالقرب من ذلك السجن الذي نقل إليه والدي. ولكن دوغماً فائدة، وقتها لم أشعر سوى أنها النهاية.

أصبح حملي ثقيل، وبات موعد الولادة قريباً، ولست أجد للنجاة سبيل. لا أريده أن يعيش في معاناة أنا لم أستطع أن أحتملها. ولم يكن ينادي في أعماقي سوى نداء واحد. وكأنما هو النداء الأخير في حياتي: "الموت... أجل لنت... ولكن شهداء الظلم الذي سببه لنا البشر! لنرحل إلى ربّ رحيم، لا رحمة بين قلوب الناس إطلاقاً. لنت ولا شيء سوى الموت... إنه الموت ولا شيء سواه".



أعلنت الحياة حينها موعد رحيلي. وزفّ الموت تباشير قدومي نحو العالم الآخر. وقفت حينها على قمة هاوية سحيقة؛ لأرمي نفسي من عليها.. سأرحل من هذا العالم. أغمضت عيناى وشهدت بأن الله إله واحد، وأن محمد رسوله... شهدت بأنّ البشر ظالمون، وأني لن أسامح بحقي مهما حدث. سأنتقم من كل أولئك الذين آذوني وعذبوني. سأنتقم من عاداتنا وتقاليدنا التي حرمتني زهرة عمري، ودنسها بقدمها القدرتين. شهدت بأنّ الناس في موطني يخشون العار أكثر مما يخشون الحرام، ويخشون الناس أكثر خشية من الله.

وعندما انحنى جسدي هاويا نحو سقوط... أمسكت بي يدٌ من ورائي وسحبني إلى الخلف. سألت نفسي في لحظة: "من يا ترى؟". فأجبته "ربما جبريل جاء لينقذني كما أنقذ مريم - عليها السلام - من قبل!"

التفت لأرى من صاحب تلك اليد المنقذة، فإذا بلطمة استقرت على وجهي كانت في انتظاري. كان حينها والدي هو صاحب تلك اليد المباركة، وصاحب اللطمة المباركة أيضاً، شدني إلى حضنه وقال "ما تعبنا وذقنا كل هذا العذاب، لنتهي رحلتنا وكل هذه المعاناة والمشقة ها هنا!". استعدت وعيي حينها وعلمت أن الله أدركني برحمته، فأنا لا أخشى الموت إطلاقاً، بقدر ما أخشى أن أرى وجه ربي يوم البعث وهو غضبانٌ عليّ مما فعلت. جثوتُ وأنا أحتضنُ والدي وبدأتُ أنحب وأبكي بصوت مرتفع. كنت أود أن يعرف كل ما حدث لي في غيابه فقط من صوتي المفعم بالألم، ومن دموعي الساخنة كحلم بركانية.

فخالي كحال مريم العذراء، حملت بغير إرادتها، وهربت من قومها خشية ماذا سيقولون عنها. وذاقت برحيلها مر الوحدة والألم والشوق . وما الفرق بيني وبينها سوى أن الذي أدركها جبريل - عليه السلام - وأما عني فهو والدي الغالي، وكلاهما رحمة من الله على عباده. يا للغرابة! كيف جعل الإسلام المرأة في مقامٍ عالية، وهدمها بعض المسلمون الذين يظنون أنفسهم عبيد لله، وهم ليسوا سوى عبيد للعادات التي تبناها خيالهم، وجعل منها دستوراً، وقرآناً لهم!

كيف أوصى الرسول (عليه الصلاة والسلام) بالمرأة وهو يدرك أن الموت يدنو منه حين قال: "أوصيكم بالنساء خيراً". وظل يرددّها وكأنه يشدد عليها وترى حال كثيرون ممن حولنا يؤمنون بقولها، ولكنهم يتجاهلون فعلها وكأن حال فعلهم يقول: "سمعنا وعصينا".

أنا كنت ضحية لكتابٍ قدرة، وكنت ضحية لـ "ماذا سيقول الناس عني؟" وكنت ضحية لمجتمع يسوده الجهل، واتباع الخرافات التي تزيد من بشاعة الأمر.

لست وحدي من تعاني ذلك، ولست وحدي كنت الضحية، بل أمثالي كثيرات. أمثالي فتيات زوجن بكرّاً ومازلن في سن الطفولة. سلبت زهرة طفولتهن، وعشن بين أية دي أشخاص يكبرونهنّ بسنين كثيرة، وكأنهنّ مجرد حيوانات أليفة ليس إلا، لأن العادات والتقاليد تجري على هذه الشاكلة! أمثالي فتيات سلبن حقهنّ في التعليم، حقهنّ أن يطورنّ من

أنفسهنّ، أن يكنّ شخصياتٍ بحق، كرمهنّ الله بعقل لاستخدامه، لأن العادات جرت ألاّ تعليم للفتيات خشية العار.

أمثالي فتيات ضاعت أحلامهنّ في مهبّ الريح؛ بسبب طمع وجشع أهلهنّ، وأصبحنّ خادِمات في بيوت أزواجهنّ. الفرق بينهما وبين الخدم أنّ الخدم يقبضون مرتبهم آخر الشهر، إلاّ أنهنّ لا يقبضنّ كل يوم سوى السب والشتم والصفعات! ولا يحقّ لهنّ أن يعترضنّ على ذلك الحال لأنهنّ ستهدنّ العادات التي سار عليها آبائهنّ وأجدادهنّ.

لسنا في عالم آخر ولا في كوكب ثانٍ... إنّنا فقط في عالم يلوحون فيه براية الدين؛ كي يظهروا كم هم ملائكة، وقطعاً فإنّ أفعالهم إنّما هي كأفعال شيطانٍ، متجردة من الأخلاق والقيم. ولهذا نحن أصبحنا أمة لا تحكّنا أخلاق وقيم، بل عادات وتقاليد.

جهزّ والدي أمر سفرنا إلى السعودية، وشعرتُ آنذاك أن صفحة عالمي هذه ستطوى أخيراً بل سأمزقها من دقتر حياتي، وسأحرقها لأنثرها على نسَمات الرياح التي ستهب، كل ذلك الزمن سيختفي وسيظهر عالم آخر. وعندما وصلنا إلى هناك.

## (23)

### كشف الحقائق 1

مجرد بضع نقاط تلحقها نقاط. لا شيء غير ذلك. كثيرون هم أولئك الذين عندما يكتبون يتركون وراء كلماتهم فراغاً أو بضع نقاط. وكأن هناك كلام يدور في عقولهم، أو في قلوبهم لم يستطيعوا ترتيبه أو تفسيره، أو شرحه لك. يستغنون عن كثير من الحروف ويستبدلونها بنقاط ليس إلا. ويتركون لك حل شفرتها المعقدة.

الخامس عشر من آب "أغسطس"

كان صباحاً مميزاً. كان الجو رائعاً بالنسبة لي، ذهبت إلى المطبخ، جهزت كوباً من القهوة الصباحية، ثم رحت أفكر: هل أتصل بها، أم لا! "ربما ليس مسموحاً لي أن أتصل لها في هذا الوقت" قلت هكذا في نفسي مع مرارة من الخيبة كالعادة. أخذت الهاتف وأعدته مراتٍ عديدة. الأفكار هي نفسها... هل أتصل؟ لا يحق لي ذلك، نعم فهذا غير لائق الآن، هل أتصل أم لا!؟ ماذا لو لم أرها في المشفى اليوم؟ لن يحدث شيء، سأنتظر، لا يعقل ذلك كيف يمكنني أن أصبر؟!

الصبر أمرٌ من العلقم حين نتجرعه، وما قيل صبراً إلا لأنه مرّ، والمرارة متصفةٌ فيه وله. لكننا وعلى أية حال سنجازف. سنخوض معركة مصيرها مرّ، فإما أن نصبر ونذوق المرّ أو نرى الحقيقة المرة.

قررتُ حينها أنني لن أتصل، فهناك مقولة دائماً ما كان يقولها غازي وينبهنى عليها: "لا يمكن لكبرياء الرجل أن يهزمه غرور الأنثى".

شقت طريقي نحو المشفى بسرعة، ولكن هذه المرة كنت أحمل معي رواية الأنسة "سين" كنت أود أن أفهم لمَ الكلّ يعاملني بالغاز، وخطط وشفرات؟ هل يحسبونني محققاً أم ماذا!

- ربا...
- أطرق الباب أولاً، ثم أدخل!
- أعتذر بشدة.. لكن هناك أشياء كثيرة مهمة وأريدك أن تساعدني.
- ماذا هناك؟!
- سأحكي لك من الآخر، لأنّ التفاصيل الأولى تعرفيها مسبقاً.
- حسناً..
- البارحة كنت أقرأ الرواية مثل كل يوم. ثم جاءتني رسالة من رقم غريب!
- ماذا فيها؟
- قال فيها: "دكتور خالد هل أكملتَ قراءة الرواية".
- لا بدّ أنّ الشخص يعرفك، حيث أنه ذكر الرواية واسمك أيضاً.

- لكنني تجاهلتها، وعندما عدت للقراءة وجدت أن هناك حوالي عشر صفحات مقطوعة منها!
- لم أفهم، ما الذي تحاول قوله؟
- أقول أن هناك علاقة بين الأمرين..

صمتت دون أن تقول شيء. وظلت تفكر في أشياء خفية لا يمكنني معرفة ما يدور في خاطرها. بالإضافة إلى أنني لم أرَ منها أي اهتمام لما قلته - على غير عاداتها - لم أعرف حينها هل كان ذلك التجاهل هو بسبب إزعاجي مؤخراً لها! أم بسبب شيء آخر يشغل تفكيرها.

ومع ذلك، فقد كان لغزاً محيراً بحق. ما سبب قطع تلك الصفحات وخاصة بعد وصول تلك الفتاة إلى السعودية؟ هل حدث هناك شيء مروع أكثر مما حصل في اليمن؟ ثم ما علاقتي أنا بكل ذلك وما شأنني به!

أعدت قراءة تلك الرواية مرات عديدة كي أصل إلى خيطٍ - ولو بسيط - يدل على ذلك. وليس لهذا اللغز فقط أردت أن أجد الحلول، وإنما لكل أولئك الذين من حولي. فقد كنت أراهم كخيوط عنكبوت تلتف بتصميم دقيق، ومحكم حول فريستها، ولا يمكن الخلاص منها أو الفكاك. فكلما حاولت أن أستلّ منها، زدت التصاقاً بها، فقد كانت تلك الأشياء التي تربطهم مبهمة علي، لكنهم حتما يعرفونها، ومع ذلك لا يودون أن يعلمونني بشيء منها.

ما سرّ مقتل أخي غازي في ذلك اليوم الذي قال لي أنه اليوم الموعود؟ ولماذا حرقت جثث جميع القتلة وتم محو كل آثار الجريمة؟ من المخطط وما الدافع وراء ذلك؟ وما سرّ ذلك الحادث الذي أودى بحياة والدي ولم يكتشف من الفاعل حتى اللحظة؟ وما سرّ قطع تلك الصفحات من الرواية؟ ولم أرسلت إليّ وليس لأحد سواي من الكتاب، وأنا لستُ بالغ الصيت وإنما مجرد شخصٍ بسيطٍ وعادي؟

وماذا عنها - ربا - ما الدافع وراء كل هذا التعطش لمعرفة ماضي؟ على الرغم من يقيني التام أنها لا ترغب بالارتباط بشخصٍ مثلي نهائياً. ولست أعلم ما سبب ذلك! مع أنني أراها تكن لي مشاعر كبيرة ولي مكانة خاصة في قلبها.

أذكرُ مقولةً أعجبتني في رواية الجحيم لدان براون تقول: "إنّ مجرد كون العقل البشري لا يستطيع تخيل حدوث شيء، لا يعني أن ذلك لن يحدث". نعم، فالكثير من الأشياء التي كان الناس يسمونها هرطقة أصبحت الآن حقيقة. وكم من الأشياء التي عذب علماء بسببها، يستفيد البشر منها الآن. ولهذا لطالما تساءلت هل أسلوب التكذيب شيء وراثي في سلالة آدم؟ أم ماذا؟ لم لا نصدق الأشياء كما هي! ألا نستطيع أن نثق بالأشخاص؟ هل أصبح الناس إلى هذه الدرجة من الكذب حتى أنه لم يعد يجدي معهم إلا أن يحلفوا بالأيمان المغلظة حتى يتم تصديقهم؟

هناك أشخاص يحترفون طريقة في الحياة تسمى "التسلل". يجيدون التسلل إلى حياتنا، ويجيدون أيضاً التسلل في الخروج منها. حتى أننا

لا نشعر متى تجاوزوا ذلك السد الكبير، والحصن المنيع، الذي لففناه حولنا. يعبثون بمشاعرنا، ويضعون خربشاتهم على جدران قلوبنا ثم يتملصون من كل تلك الأشياء التي فعلوها، أو كانوا سبباً في حدوثها ثم يختفون، لنظلّ نبحث طويلاً عنهم ظناً منا أنهم سيعودون إلينا مرة أخرى، لكن لا جدوى من ذلك إطلاقاً.

"رحل ولم يعد" كان الأولى أن أكتب - في هذه العبارة - روايةً أشرح فيها كيف دخلت إلى حياتي، وكيف عبرتني إلى الجانب الآخر من شاطئ عمري ثم رحلتي.

هل تعلمين! قد تظنين في أشياء أنا لم أرها في نفسي إطلاقاً، وكلما سمعت منك ذلك فقط تريني أضحك، ليس على خيالك الجامح فقط، بل على أفكارك التي تتخبط في عقلك.

ولهذا يقال: ألدّ مراحل الحب هي مرحلة التعارف. ومع أنني لا أؤمن بذلك قط؛ لأن هذه المرحلة أسميها - أنا في قاموس حياتي - مرحلة خيانة الذات، لأنك تضطرّ أن تظهر كفارسٍ لا يُشبهك أحد. قادم من عهد الإغريق، أو الرومان. وتحمل في يدك وردة حمراء لتسحر محبوبتك بها، وهي كذلك ستحاول أن تظهر أمامك بكل أنواع الوجوه التي ترغب في الحياة. ستتلون بكل الألوان فقط لتكون جوهرة براقّة، بل معجزة ربانية لم تولد في البشرية مثلها قط!

ثم شيئاً فشيئاً، ستختفي كل تلك الأقنعة، وستحدث مشاكل لا حصر لها. تكاد تصل لحد الاختناق. ستسبح في مياه مالحة، وأنت



في أوج عطشك، وستسير هي فوق جمرٍ متقدِّ حافية القدمين. وإن كانت هناك مشاعر صادقة فعلا، ستكلل قصة حبكم بالورد وستكونان لبعض. ولا بأس في أن تدخل قصتكم هذه التاريخ تحت مسمى "الحب الصادق"، وإذا لم يحدث ذلك فربما لسببٍ أو لعذرٍ لم يكن له أثر: مثل الظروف، أو أن القدر لم يحكم لهذه العلاقة بالنجاح، وهكذا يسير الحب في قافلته ليشتري هذا ويبيع ذاك!

وبمناسبة هذا الحديث فإنه يقال: "إنَّ الشخص الذي يهتم لأمرك، فعلا يحبك". ولكنني أرى أن الشخص الذي يحبك هو الذي يهتم لأمرك. شخصٌ تراه في كل مكان يسكنك: في سماء خيالك، و في باطن أرض تفكيرك. أن يشغل ذاك الخاطر الذي يجتاحك، كلما أحسست أن الحياة تبسمتُ لك أو تجهمت في وجهك.

فبين نظرات المحبين ستري قصصاً تُروى، ولا تسمع لها حسييس. وذلك الحسييس هو حوار طويل جداً، لا تحده مسافات، أو يعبره زمن. فلا مكان ليحد تلك النظرات ولا زمان.

ولهذا كلما لمحت تلك النظرات بين أيّ حبيبين تراني أبتسم، ليس لأنني سعيد لأجلهما فقط، بل لأنني أشعر وكأنني الشيطان الذي يتجسسُ على حوارهما الهادئ سرا. فلا يخلو شخصان في أي عالم، أو أي زمان إلا وثالثهما الشيطان.

ولذا في اعتقادي أنه يحق للكاتب أن يكتب أي قصة حب، أو عشق. لكنه قطعاً لن يحاول تجربتها، فهو خيرٌ من يعلم ماذا يعني ذلك العالم.

ومع ذلك فقد كنت أحد الكتاب المغفلين، الذي أرادوا تجربتها، و لهذا فقد وقعتُ في المكان والزمان الخطأ، فهي لم تكن كالتى كنت أتوقعها، وأحلم بها. بل كانت كاللغة من الحب ذاته، وكأنه حتماً يريد أن ينتقم منى، لكل تلك الخيبات التى كتبتها عنه يوماً ما!

الحب لا يمكن أن يملك أو يُملك... هو فقط يرى تلك القلوب التى تتألم بسببه.. "هى بسبب الخيانة، وهو بسبب الظروف"

وهكذا نمضى قدماً في عالم من الفلسفة المعقدة التى يحاول الجميع أن يفهمها بطريقته الخاصة، ولكل شخص وجهة نظر، ومذهب، ودين، وعالم خاص به.

ازدادت الأمور تعقيداً أكثر فأكثر. وأصبحت كما الشمل الذى فقد عقله، وأصبح يتخبط في هذه الحياة، دون معرفة ماذا يفعل؟ أو أين وجهته التى يلتجئ إليها! لم أكن أعلم أين أجد الحقيقة، وهل من أحد يخبرني بها، وكنت فقط أردد: "رحلوا ولم يتركوا لي إلا فتاتاً من كلمات متقطعة مهشمة لأجمعها فتصير جملة معقدة الفهم".

زارتني خلال تلك الأيام امرأة غريبة وقالت لي عبارة جعلتني أستشيط غضباً، ورحت أصرخ بكل قوتي، وكرها لشيء، ولكل شيء.

أتت إليّ تجري بسرعة وكأنما حربٌ قد حدثت في مكتبي، وقالت في خوف: "دكتور خالد ما بك؟ ما كل هذا الصراخ؟".

التفتُ إليها وعينايَ تفيضان غضباً وأجبت بصوت جهوريّ "تسأليني ما بي؟"

ردتُ بصوتٍ خافتٍ لعلّي أهدأ ولو قليلاً: "أجل ماذا حصل لك؟". هرشتُ على شعري وأمسكتُ وجهي بقوة وأجبتها: "آخر ما كنتُ أتوقعه أن تأتي إليّ امرأة لتقول أنها والدتي، ما هذه المسخرة بربك؟" جلستُ على الكرسي وقالت بصوت خائف وخافت: "ألم تقل أن أهلك قد ماتوا في حادث؟"

أجبتها بهدوء وكأنما هو هدوء ما بعد العاصفة، أو لنقل هدوء ما قبل العاصفة، فقد كنت أنتظر المزيد من تلك المفاجآت الغريبة: "نعم هو كذلك".

خرجتُ من الغرفة بسرعة وقالت: "سألحق بها لأعرف ما وراءها" تركتها ترحل وبقيت ساكناً في مكاني، فقد استنزف الغضب كل طاقتي وأصبحتُ مُخار القوى لا أقوى حتى على أية حركة. انتظرت عودتها لعلها تفسر هذه الحوادث التي تلاحقت عليّ. عج مكثتي بزملائنا والكل يتساءل بغرابة ما الذي حدث للتو؟ وعندما عادت كانت تحمل في يدها قصاصة ورقية، نظرتُ إليّ مطولاً، وظلت تصك أسنانها مرات عديدة. جلست أحرق في غرابة حالها، ثم سألت: "ماذا هناك؟!"

تحركتُ نحوي ببطء ثم تلفتت يمنة ويسرة، وكأنها تريد أن نتحدث على انفراد. فهم الجميع ما تقصد، ثم ذهبوا بعد أن ذكر كل

واحد منهم نصيحة لا تمسّ ما حدث بصلة، ولكنني - كالعادة -  
بحرّ أقبل كل شيء... أعطتني القصاصه ثم مضت..

- لا بأس، فلترحل.. مجنونة وفيما يبدو أنها تحتاج إلى زيارة  
طبيب نفسي.. حالتها مستعصية جداً.

ضربت يدها على الطاولة مقاطعة، وصاحت بقوة: "يكفي ثرثرة،  
وكأنك امرأة أصابها الخرف، خذ، اقرأ واصمت".

نظرتُ إلى نظراتها الحازمة، وأخذت من يدها تلك القصاصه بسرعة  
لعلّي أكتشف ما سبب كل ذلك، ظللتُ أقرأ تلك القصاصه مشى  
وثلاث ورباع، وعشرة، وعشرون، وخمسون، وليس يسكنني شيء  
سوى الحسرة وأيّ حسرة كانت!

إنها حسرة يطلق عليها اسم "القهر"

"كن صقراً، كن نسراً، كن تتيناً أو عقاب.

كن رعداً، كن برقاً، تهتّزّ لصراخك كل السحاب.

كن أملاً، كن قمماً، حطم بهم كل الصعاب.

كن شمساً، كن قمراً، ازح عن طريقك لون الضباب.

كن حقاً، كن صدقاً ولا تكن مثل السراب.

إذا سقطت إياك أن تمدّ يدك لأحدهم كي يرفعك، فمن يرفعك  
اليوم، غدا لن ينفّعك.

الدهر يمضي والعمر يمضي، وأخبرني ما الذي يمضي معك؟

كانت تلك مجموعة من العبارات التي كتبها غازي ذات يوم.. عندما أخفقت ذات مرة في دراستي. كان لا يحبذ أن أرى ضعفي، بل يريد مني دائماً أن أرى نفسي قوية، صلبة، عنيدة، مثابرة.. كان يقول: "اجعل الثقة أمامك، والعزم جدارك، والصدق قرارك، واليقين دارك، ولا تركز إلى وهمٍ فيأخذ إصرارك نحو انهيارك، ودمارك".

لكن أين هو غازي الآن ليخبرني كيف يمكنني أن أُللم أفكاري؟ وكيف أتداوى من بؤسي وشقائي؟ أين هو ليخبرني ما معنى أن تخفي شيئاً عن شخص يثق بك ثقة عمياء؟ ويراك كتلة من الأقوال الصادقة، والأفعال الحسنة، يراك ملاكاً صادقاً بريئاً لا يشابهك أحد البتة؟ أن يؤمن بأنك الوحيد الصادق في هذا الكون، وكأنك تجسد الصدق بحد ذاته. أن يرى أن العدالة الكونية تمشي على أكتافك، وأنت خير من يؤدي طقوسها، ثم يكتشف أن كل ذلك كان مجرد لحنٍ لموسيقى حزينة ليس إلا؟!

نعم. تلك الموسيقى خدعتني بألحانها، وبأفكارها التي ظننتها تشاركني أحزاني، وتتقاسم معي أنغام البؤس. وتبين لي أنها فقط أداء لشخص أراد أن يرقص على أنغام هادئة.

لِمَ أخفى عني كل تلك الأشياء؟ التي لو لم أقرأ تلك القصاصة التي أعطتني إياها تلك المرأة أو لأقل - والدتي الغريبة - ترى ماذا كان سيحل بي؟

هل كنت سأكذب على أبنائي وأحفادي جهلاً؟ كما كذبوا عليّ  
علماً؛ بأنني طفلٌ لوالدٍ سوريٍّ يسمى عبد العزيز.

ماذا يسعني أن أقول؟ وماذا عساه يكون؟ بلمحة عين، والدك  
شخصٌ آخر. بطفرة عين، أنت شخصٌ آخر. برمشه عين ستكون  
والدتك أمٌ أخرى! أليس هكذا مضحكاً ومُبْكٍ في نفس الوقت!  
أليس جميلاً أن تخوض مغامرة أخرى في عالمٍ لطالما وثقت بهم  
وصدقتهم، وتبعْتَ خطاهم. ثم قالوا لك عندما أوشكتَ على  
الوصول إلى نفق الحرية: "مهلاً، إلى أين أنت ذاهب؟! طريقك من  
هناك هيا عُد أدراجك، وتابع سيرك، وسترى نفقاً طريقك في نهايته!

وماذا عنها؟ "رباً!" ما السرّ الذي تحيكه هي بدورها؟

تعقدت الأمور كثيراً، وأصبحت جليس منزلي الذي أراه عالمي  
الصغير البائس مثلي تماماً...

لم أعد أرغب بشيء، ولا أريد شيئاً، ولا أشتهي شيئاً، فقط خليط  
من ماء وهواء وسراب من خيال، أسترجعُ كل تلك الأشياء التي  
رماها القدر في وجهي كثيابٍ متهرئة. لكنني - ومع الأسف - لم  
أرتد بصيرا كما حدث ليعقوب - عليه السلام - بل أصبحت أعمى  
بسببها، ووحيد أيضاً، وأكره الماضي والحاضر والمستقبل! فهنئاً  
لي ولمن عاش على طريقتي، وسار على مذهبي.

الغريب في الأمر! كيف لم ألحظ كل تلك الأشياء التي جرت من  
حولي؟ ولكنني لا يحق لي أن أسأل ذلك البتة. فأني لحصانٍ جريح

ملقى على الأرض، ولا يقوى على النهوض، أن يسابق تلك الأحصنة  
في سباق نحو الموت والخلاص، ألن يكون ذلك غريباً!

أن تنهض لتنتقم، ومن عساه يستحق انتقامك منه..!

الماضي، أم سكان الماضي، أم أحداث الماضي.

أم من أولئك الذين أخطأوا في الماضي وتحملنا نحن أخطائهم  
وذنوبهم!

جرت عادتي أن أتصل بها كلما شعرت بأمرٍ مؤسف كما هو الحال  
معها، أو كنت في ضيق، كنا شريكين رائعين في عزاء بعضنا  
البعض، لكنني في تلك المرة اتصلت بها لأرى ما الجديد في بحثها  
عن أيام الماضي وكيف جرت؟ فقد كانت فضولية جداً لدرجة أنها  
تكفلت بنفسها بالبحث عن لغز الماضي المحير الذي يحمل ذاكرة  
أيامي. عندما كنت أقرأ تلك القصاصة شعرت وكأنني طفلٌ أضاع  
طريقه، يبكي، يصرخ، ينادي أبواه أو أحد من الناس دونما فائدة  
تذكر. حفظتها عن ظهر قلب لدرجة أنني أريد أن أوقظ غازي من  
قبره وأصرخ في وجهه هل فعلاً أنت كتبت هذه؟ هل أنت من أعطى  
تلك المرأة هذه الرسالة؟ لِمَ فعلت ذلك؟ ما شأني بك وبها لتحكما  
على مستقبلي من ذلك الطريق:

الأخت الفاضلة سحر علي أحمد... أودّ إعلامك أن طفلك المسمى:  
"خالد عبد العزيز 'أبو العز' قد أصبح الآن لديّ وتحت رعايتي،  
وذلك جراء حادث أصيبت به أسرة صديقي عبدالعزيز، ولا يمكنني

إخبار الصغير بحقيقة من تكونين له حالياً وسأترك ذلك حتى يكبر، ولا تخشي عليه أبداً، فهو وصية أخي لي وبأمانتي. دمت بخير".

المرسل/غازي عثمان

أنا طفلٌ لسحر، ذاك هو اسم والدتي الجديدة -سحر- من اليوم فصاعداً، أنا لستُ يتيم الأبوين، بل أنا لدي أهلٌ وأسرة. لي أسرةٌ ليست سورية ولا أعلم أي جنسية تحمل، والأهم من ذلك أنني سأخوض تجربة جديدة مع أشخاص جدد وأناس آخرين.

سأصحو الصباح على صوت والدتي، وعلى دعواتها المباركة سأذهب إلى العمل، ستختار لي عروساً جميلةً مثلها وسيكون لي أطفالاً سيكبرون تحت حنانها. أليس هذا جميلاً؟! أم أنها مجرد أوهام أخدع بها نفسي فحسب!

- مرحباً ربا..
- أهلاً خالد..
- ماذا هناك؟..
- أشياء كثيرة.. هل أستطيع أن أراك اليوم؟
- حسناً متى؟
- الرابعة عصراً.
- جيد.. إلى اللقاء.



ذهبتُ إلى هناك قبل الوقت بنصف ساعة، لم تكن تلك عادتي أبداً، فقد كنت دائماً ما أتأخر في المواعيد ليس لأنني مشغولٌ وإنما أحبُّ أن أنتظر! هذه غريزتي التي نشأت عليها، وعندما رأتنى قالت: "هل تأخرت عليك؟" أجبتها: "كلا ولكنني من سبقك إلى هنا". ابتسمت وهي تجلس ثم قالت: "لعله التغيير الموسمي لمزاجك إذن؟". هزرتُ رأسي نافياً ذلك ثم نفضت الهواء من رئتي المغبون عليها وأنا أردد "بل التغيير في كل شيء، في كل شيء"

بدت هالات سوداء تحيط بكلتا عيناى، حتى أصبحتا ذابلتين وغارقتين في الحزن. لاحظت أنها تفكر بذلك من نظراتها الفاحصة نحو وجهي

- مُرهق؟!
- جداً
- إلى متى؟ إلى أن تعرف الحقيقة كلها أليس كذلك؟
- قطعاً!
- وإن لم تجد من يدلك عليها؟
- بئساً!

أخذتُ نفساً عميقاً ثم قالت: "اسمع قد لا يحق لي أن أتفلسف بأشياء لا يحق لي أن أتدخل بها في حياتك، فقد تظنني لا أتألم نفس الملك ولكنك في هكذا حال لن تستفيد شيئاً، أنت تقود نفسك نحو الهاوية فحسب! ما الذي ستجنيه من جلوسك وحيداً؟ ومن كآبتك وحزنك طول الوقت؟ ما مضى مضى وانقضى، وأنت لن تستطيع أن

تُغير من الأمر شيء. الماضي إن رحل لا يعود ، فقط أكمل حياتك  
كما تشاء أنت وليس كما يشاء الآخرون أو قدروا لك ذلك".

التفتُ نحوها بمللٍ ثم قلت: "جيد". لكنها غضبت وصاحت في وجهي:  
"أنت عنيدٌ ومغفلٌ كبير".

تبسمت وهمست: "أعلم".

كنت في حالة غريبة، نوع من أنواع توقف الإحساس أو تبدل  
المشاعر.. لم أكن أرغب بشيء سوى أن أعرف من أكون فحسب؟  
ولعلّ تلك المرة أول مرة ترى فيها حقيقتي، حقيقة التجمد الذي  
كنت أمر به عند حدوث أمرٍ سيءٍ لي، أدركتُ كم كنت أمقت  
الكذب والكاذبون على حد سواء، كيف يتحول ذلك الشخص  
المرح إلى كتلة متجمدة من القسوة عندما فقط يلمح من أي شخص  
محاولة الكذب في شيء. لأنني كنت وقتها لا أسامح، لا أسامح  
إطلاقاً.

صمتت لبعض الوقت وكأنها تستعيد هدوءها ثم قالت: "خذ،  
أعطتني تلك المرأة هذا الملف عندما زرتها في بيتها".

أخذته من يدها بتلهف شديد وبسرعة كبيرة، ونسيت أن أسألها  
كيف عرفت مكان إقامتها - أقصد مكان إقامة والدتي -  
وسبب ذلك أنني كنت أبحث عن الماضي وليس عمن سكنوه؟ أو  
أين مكانهم؟ فالأمر لم يعد يهمني في شيء.

ذهبتُ عندما رأيتني منهمكٌ في تقليب تلك الصفحات وتفحص ما بها،  
استأذنتني ثم مضت.

كان في ذلك الملف الصفحات المقطوعة من تلك الرواية - رواية  
الآنسة سين - وكانت هناك رسائل أخرى من غازي لها.

لكنها كتبت على غلافها "لطفًا، لا تقرأها إلا بعد أن تنتهي  
الرواية". أطعتُ طلبها ذاك فهي قد تكون فعلاً والدتي، وطاعة  
الوالدين - كما هو معروف - واجبة.

## كشف الحقائق 2

الكذب ليس كما يقال عنه "حبله قصير" بل هو غشاء يُسدل على الأعين فلا ترى شيئاً سوى الوهم الذي ننخدع به، وعندما ينقشع هذا الوهم، نرى الحقيقية بكل تفاصيلها. أوليس مؤلماً حقاً أن تمضي عمرك في غيبوبة طويلة، ثم تصحو من تلك الغيبوبة لترى كم هائلاً من الأشياء التي كانت في غيبوبتك لا وجود لها؟! أليس مرعباً أنك أنفقت عمرك وأنت تائه في السراب لم تحقق لحياتك شيئاً ولم تستفد منه لنفسك في شيء، وليس لك من الأمر شيئاً سوى سؤالٌ يتردد على أفكارك دوماً، ثم ماذا أيها القدر ماذا تخبئ لنا أكثر؟ بربك أخبرني ماذا؟

### الأكمل لها:

وعندما وصلنا إلى هناك - السعودية - كان في انتظارنا صديق والدي المقرب، وكاتم أسرارهم، أقلنا إلى بيتنا الجديد في جدة بعد أن انقضت ساعات طوال ونحن في الطريق، وحينما وصلنا إلى هناك قال والدي بزفرة "أخيراً كل شيء على ما يرام" توالى الأسابيع وحانت اللحظة المرتقبة ساعة الخلاص.. ساعة انقضاء الألم.. ساعة ذقنا لأجلها الكثير

من العذاب والمشقة، بل ما لا يعد ولا يحصى من الحوادث المؤلمة والمحنة والمفرقة ..

حدث المخاض... ولم يشأ والدي أن أذهب إلى أي مشفى؛ خشية أن يعرفه أحد. لم أكن أعلم هل كان ذلك هوساً أصيب به والدي أم رهاب من الأشخاص الذين يعرفون ملاح وجّهه؟

لكن يبدو مما كان يفعله والدي أنه لم يكن يريد أن يعرف بالأمر كائن من كان.

استدعى صديقه ممرضةً للمساعدة.. كان الأمر أشبه بانتحارٍ بطيء ولكنه في النهاية يظل قاتلاً، وافقت الممرضة بعد جهد كبير من والدي وصديقه.. وظلت تردد طيلة الوقت مخاطبة والدي "ما كنت لآتي لأساعدك إلا بداعي الرحمة، مع أن أمثالك أشخاص لا يرحمون، ولا يستحقون الرحمة".

طال الأمر كثيراً، وطال معه ألمه وعذابه. كنت أدرك أنني سأموت لا محالة، ومع ذلك لم أخش الموت، فالموت راحة لنا من كل شر. فأنا مقبلة على شيء قد يكون جريمة في حق الإنسانية، وفي حق أن أقتل ضميري بيدي كما قتله كثيرون من أبناء مجتمعي. عندما رأيت طفلي بين يديها أحسستُ بغصة تخنقني رثاءً لحاله. ذلك طفلي يحمل بضعة مني، عايننا سوياً، تجرنا المر سوياً، مشينا في أقدارنا سوياً، ولكنها الآن لحظة الفراق؛ لاسيما وأن والدي كان مصراً على أن يضعه في أقرب مسجد، فهو كما يقول: "لن أربي طفلاً ليس لي". تساءلت مطولاً ما ذنب هذا

الطفل الذي سُرِمى هناك كشيءٍ قذراً! أليس له روحٌ وحياة؟! ولمَ مصير كثير من الأطفال هكذا؟! بأي حق ساقطهم أقدارهم هكذا وبأي وجه حق؟

أجهشتُ بالبكاء حينها بقوة. تعجبت الممرضة مما حصل لي آنذاك وراحت تسألني ما بالي وما الذي يؤلمني؟ وليته كان وقتها ألم الجسد فحسب فألم الروح والقلب لا يقارنا بأي ألمٍ آخر. لم أستطع حينها أن أخفي عليها سر بكائي؛ فأنا أم، والرحمة فطرة ربانية تساق لأي أم كانت، ومهما كانت... دخل والدي مستبشراً بعد أن سمع بكاء الطفل. ليس حباً فيه ولا شوقاً إليه..

فقط كان يردد "الحمد لله، إنه الخلاص"

قبلني والدي بين عيناوي وراح يمسح على شعري، ويمسح دموعي وهو يقول: "سامحيني يا فتاتي الصغيرة، ولكنك تعلمين عاداتنا في بلادك، وتعلمين ماذا يعني وصمة عار، وأي مصير كنا سنذهب إليه!".

تمنيتُ حينها أنني مت حينما سنحت لي الفرصة أن أمت، على الأقل كنا سنموت سوية فهذا خيراً من أن أعيش، وأنا أتذكر صوت طفلي...

أراد والدي أن يأخذ الطفل لكن الممرضة استوقفته بغضب وقالت له: "أنا بحاجة لهذا الطفل أكثر من المصلين في المسجد".

التفت والدي إليّ بغضب وقد أحمر وجهه وتجهّم مما فعلته. لكن الممرضة همست له "هذا مقابل صمتي، ومقابل قدومي إلى هنا في هذا الوقت".

سلم والدي الطفل لها على أن تبتعد عنا، ولا ترانا أبداً، وكما علمت حينها فقد كان زوجها عقيم، ولم يكن باستطاعتهم أن ينجبوا أطفالاً.

كبرَ طفلي في أحضان أم ثانية، ونما وترعرع على رائحتها، وأصبح جزءاً منها. كنت كلما اشتقت إليه أراقبه من بعيد كمن يسترق النظر، لا أستطيع ولا يمكنني الاقتراب.

عملَ والدي في السعودية، وتركني أكل تعليمي هناك، وكلما سأله أحد عن سبب إقامتي هناك أجابه: "إنها تدرس".

لم أعد إلى اليمن سوى بضع مرات؛ وذلك بسبب أمر زواجي من رجل سعودي، والذي لم يكن يحب الخروج من موطنه إلا نادراً. تزوجت بعد تلك الحادثة بسنتين، ورزقتُ بطفلة صغيرة وجهها كالقمر، منحتها كل ما حُرمتُ منه، أغدقت عليها بحنان عظيم، وكأني أُنْتَقِمُ من قلبي القاسي؛ أن كيف تركت طفلي يأخذونه مني بتلك السهولة.

بعد أن أنهت طفليتي دراستها دخلتُ كلية الطب. كانت فتاةً مثابرة ومجتهدة حالها كحالكَ عزيزي خالد. طلبت منها أن تعمل قريباً منك، كي تهتم بك عوضاً عني، وأن تُشْفِقَ عليّ ببعض من أخبارك، وأن تسرد عليّ ماذا قلت، وماذا فعلت، وماذا أكلت وماذا شربت. أردت أن أعوض نفسي عن طول سنين حرمانني منك.

فهل أدركت الآن سبب قربها منك وبعدها عنك في نفس الوقت؟

وعدني مريـك أن يهتم بك كثيراً، وأن يخبرك بالحقيقة عندما تكبر، لكنه توفي بحادث أودى بحياته وحياة زوجته، وبقيت أنت سليماً حينها؛ لأنك كنت في البيت. "أخبرني غازي بذلك"

قد تغضب لكلامي هذا كثيراً، وقد تعده ضرباً من الجنون، قد تسرق نفسك من هذا الحاضر، وترحل نحو المجهول البعيد، لكن الذنب ليس ذنبي يا صغيري، بل ذنب أولئك الناس الذين يحكمون على الإنسان من سوء ظنهم. ذنب قوم جعلوك تحت مقصلة ألسنتهم. وتحت رحمة لعنةٍ قد تلاحقك أينما حلت وذهبت.

اعفُ عني! وسامح كل أولئك الذين كانوا حولك ولم يخبروك بماضيـك، قطعاً فعلنا ذلك لك ولأجلـك، فنحن خيرٌ من يعلم أن ما فيك من ألم وخيبة قد فاق صواب العقل، واعلم صغيري أن أختك ما فعلت ذلك إلا لتكون معك. مع أخ يساندها ويحميها. لن أقول لك عزيزي "ما كان ينبغي عليك أن تحبها، ولكن، لا ينبغي لك أن تكرهها!".

والدتك المحبة / سحر







نعت محمد الله